مركز البحوث والدراسات التاريخية



حوليات

مركز البحوث والدراسات التاريخية



تصدر عن مركز البحوث والدراسات التاريخية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

البحث الأول

العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران

(٩٠٧-٩٢٠هـ / ١٥٠٢-١٥١٤م)

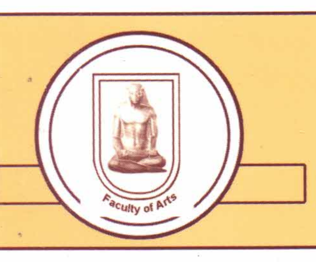
البحث الثاني

الأثر التجارى للاستيطان الصليبى فى بلاد الشام

د. نايف عيد السهيل
كلية التربية الأساسية - الكويت

نوفمبر ٢٠٠٩م - ذو القاعدة ١٤٣٠هـ

The Historical Researches & Studies Center



ANNALS OF



Center For Research and Historical Studies
Faculty of Arts - Cairo University

Historical Annual

A Referred Research Periodical

November 2009 A.D - Zul 1430

حوليات
مركز البحوث والدراسات التاريخية

دورية علمية محكّمة تصدر عن مركز البحوث والدراسات التاريخية، كلية الآداب – جامعة القاهرة وتتضمن مجموعة من الرسائل التى تُعنى بمجالات الدراسات التاريخية والحضارية .

رئيس التحرير
أ.د. وجيه عبد الصادق عتيق

نائب رئيس التحرير
أ.د. محمود عرفة محمود

مدير التحرير
أ.د. إسماعيل زين الدين

هيئة التحرير
أ.د. محمد حمزة إسماعيل
أ.د. محمد فهمى عبد الباقى
أ.د. حامد زيان غانم
أ.د. أحمد زكريا الشلق

هيئة المستشارين
أ.د. حسنين ربيع
أ.د. زبيدة عطا
أ.د. جمال حجر
أ.د. محمد عفيفى

رقـم الإيـــداع ٧٣٤٧ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى 2477 - 222 - 977

قواعد النشر فى
حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية

١) تهتم "وقائع تاريخية" بنشر الدراسات والبحوث المتخصصة فى التاريخ والحضارة ذات المستوى الرفيع، والتى تخضعها هيئة التحرير للتحكيم العلمى، وفقاً للقواعد المعمول بها فى المجلات العلمية المتخصصة. كما تهتم بنشر عروض للكتب حديثة الإصدار، والندوات المتخصصة.

٢) تقبل "وقائع تاريخية" البحوث والدراسات المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية فى حدود ٣٠ صفحة مسجلة على قرص مرن وفق برنامج (word) مع ثلاث نسخ ورقية حجم (A4) بما فى ذلك الهوامش وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش فى نهاية البحث.

٣) تعتذر "وقائع تاريخية" عن نشر البحوث والدراسات المنشورة والمقدمة للنشر فى مجلات علمية أخرى.

٤) للمجلة حق التصرف المادي دون الأدبي فيما ينشر بها من البحوث، ويكون لها الحق في إعادة نشر البحث منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغةٍ أخرى وبأي وسيلة نشر دون حاجة إلى استئذان صاحب البحث.

٥) النشر فى "وقائع تاريخية" متاح للمهتمين بالتاريخ والحضارة، وبخاصة أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية.

٦) البحوث التى تنشرها وقائع تاريخية، والآراء الورادة بها، تعبر عن وجهة نظر أصحابها، وهيئة التحرير غير مسئولة عنها.

المراسلات : ترسل البحوث والدراسات باسم أ.د. وجيه عبد الصادق عتيق مدير مركز لبحوث والدراسات التاريخية ورئيس تحرير وقائع تاريخية على العنوان التالى :
كلية الآداب -- جامعة القاهرة – بريد الأورمان – الجيزة.

All correspondence to be directed to : Editor- in chief- Prof.Dr. Wageh Abdel Sadek Atek , Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

e.mail. wageh_atek@hotmail.com

تقديم

مما لاشك فيه أن مركز البحوث والدراسات التاريخية بكلية الآداب- جامعة القاهرة قد أصبح اليوم أوسع انتشاراً بين جموع الدارسين وأغزر إنتاجا فى مجال البحث العلمى حيث استطاع المركز نشر دورياته بصفة منتظمة سواء مجلته الشهيرة "وقائع تاريخية" أو حوليته الأشهر، التى يشرفنا هنا تقديم هذا العدد الجديد منها الذى يتضمن نشر بحثين متميزين، يختص أولهما بدراسات العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران، حيث يتعرض هذا البحث لمرحلة مهمة وخطيرة فى علاقة إيران بالدولة العثمانية وبخاصة الصراع العسكرى بين الدولتين والذى استمر حتى نهاية معركة جالديران ٩٠٧-٩٢٠هـ/١٥٠٢-١٥١٤م.

أما البحث الثانى فيهتم بالأثر التجارى للاستيطان الصليبى فى بلاد الشام، وبخاصة فى المنطقة الساحلية التى كانت تعد بمثابة جسر الاتصال بين الصليبيين فى بلاد الشام وبين موطنهم فى أوربا، وتتجلى أهمية الموضوع فى أن التجارة كانت محور النشاط الاقتصادى فى تلك المنطقة الحيوية وبخاصة فى المراكز التجارية فى عكا وصور وبيروت وطرابلس، وما ترتب عليه من قيام منشآت هامة بالساحل جلها منشآت تجارية مثل الفنادق والخانات والقيساريات، والتى أحاطت بها القلاع والحصون، وقد عبر البحث بجلاء عن تلك الثورة التجارية فى الساحل الشامى فى العصور الوسطى.

ونحن هنا نترك للقارئ الكريم، قراءة هذه الحولية المتميزة والتى تحتوى على هذين الموضوعين المهمين، والمركز على ثقة أن هذه الحولية سوف تكون إضافة قيمة للمكتبة التاريخية.

وفى الحقيقة أتوجه هنا إلى إدارة كلية الآداب بجامعة القاهرة على دعمها المتواصل لكل أنشطة مركز البحوث والدراسات التاريخية.

مدير المركز

أ.د. وجيه عبد الصادق عتيق

المبحث الأول

العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة چالديران

(٩٠٧-٩٢٠هـ/١٥٠٢-١٥١٤م)

العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين
منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة چالديران
(٩٠٧-٩٢٠هـ/١٥٠٢-١٥١٤م)

﴿مقدمة﴾

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.... ،

فإن البحث في تاريخ المشرق الإسلامي من الأهمية بمكان؛ ذلك لأن هذه المنطقة من العالم الإسلامي لم تحظ بما حظيت به مناطق أخرى من التحليل والدراسة، فضلا عن أن المرحلة التاريخية التي تعرض لها هذا البحث مرحلة مهمة وحاسمة في تاريخ المسلمين.

وأهمية تلك الفترة تتمثل في بزوغ نجم الدولة الصفوية القوية التي استطاعت أن تبسط سيطرتها على الهضبة الإيرانية، وتمكنت من فرض المذهب الشيعي الاثنى عشري على الإيرانيين، وأحدثت بذلك تغيرًا مهما وخطيرًا في المحيط السني؛ فقد كانت إيران قبل الصفويين دولة سنية تربطها علاقات ثقافية وسياسية بالدول الإسلامية السنية التي تحيط بها.

لكن مع ظهور الصفويين تبدأ صياغة جديدة لعلاقة إيران الشيعية بالدول السنية المجاورة لها؛ فقد كان العثمانيون يجاورنها من ناحية الشمال الغربي، ودولة الأوزبك القوية من ناحية الشمال الشرقي فضلا عن بقية الحكومات السنية الموزعة في شبه القارة الهندوباكستانية في الشرق من إيران، والأخرى الموجودة في الغرب منها.

وقد تطرق هذا البحث لمرحلة مهمة وخطيرة في علاقة إيران السياسية بالدولة العثمانية في آسيا الصغرى، فقد تشكلت في هذه الفترة علاقة إيران بالدولة العثمانية، فضلا عن أن ما جرى من صراع بين الطرفين في هذه الفترة أعتبر

بداية لمراحل طويلة من الصراع استمرت حتى نهاية الصفويين في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي.

يتألف هذا البحث من تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، تحدثت في التمهيد عن الدولتين العثمانية والصفوية، مبينًا كيف وصلت الأولى إلى قمة مجدها وازدهارها في تلك الفترة، وكيف ولدت الثانية من رحم جماعة صوفية لها مريدوها وأتباعها في شمال غرب إيران.

وجاء المبحث الأول ليعرض للعلاقات السياسية السلمية التي قامت بين الدولتين في عهد الشاه إسماعيل والسلطان بايزيد الثاني. وقد عرضت فيه لبعض القضايا التي ثارت بين الدولتين وكيف عالجها حكام الدولتين في ذلك الوقت، وختمت البحث بالإشارة إلى بعض الأحداث التي أسهمت في بداية التوتر في علاقة كلتا الدولتين.

أما المبحث الثاني فقد جاء تحت عنوان " إرهاصات الصراع العثماني — الصفوى" وعرضت فيه للنزاع الذي دار بين أبناء بايزيد لتولى الحكم، والعلاقات بين السلطان سليم الأول والشاه إسماعيل، كما تناولت فيه أسباب الصراع العثماني — الصفوى.

وجاء المبحث الثالث ليعرض لمعركة چالديران التي مثلت قمة التوتر في العلاقات السياسية بين الدولتين، فتحدثت عن الأحداث التي سبقت قيامها، وعن النتائج التي تمخضت عنها سواء للعثمانيين أو للصفويين. ثم جاءت الخاتمة لتعرض لأهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

أرجو أن أكون قد وفقت في إلقاء الضوء على جانب مهم من جوانب تاريخ الدولتين الكبيرتين: العثمانية والصفوية، وأتمنى أن تتصرف همم الباحثين إلى النظر في تاريخ المشرق الإسلامي ودراسة أحداثه؛ لأنه ما زال بحاجة إلى مزيد من الدراسات الجادة النافعة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الصفويون والعثمانيون: ظهور وازدهار(١)

تجاورت في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ثلاث دول كبرى في المشرق الإسلامي هي: الدولة الصفوية في إيران، والدولة العثمانية في آسيا الصغرى، ثم دولة المماليك (٢) في مصر والشام والحجاز .

والدولة الصفوية دولة تركية ـ على أرجح الأقوال (٣) ـ يعود نسبها إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي (ت٧٣٥هـ/١٣٣٤م) الذي كان واحدا من أكبر الصوفية في عصره، وكانت له منزلة كبيرة لدى الساسة والحكام في ذلك الوقت.

كان صفي الدين الأردبيلي زعيما لإحدى الطرق الصوفية في شمال إيران وكان أتباعه ينتشرون في معظم أقاليم إيران وفي خارجها أيضا (٤)، وقد توارث أبناؤه من بعده زعامة هذه الطريقة، وكانوا يسيرون على نهجه في عدم الاشتغال بالسياسة، وعدم الرغبة في السيطرة والتسلط.

لكن الأمور قد تغيرت في الأسرة الصفوية بعد أن تولى زعامتها الشيخ "جنيد بن إبراهيم بن خواجه على بن صدر الدين موسى بن صفي الدين الأردبيلي" (ت٨٦٠هـ/١٤٥٦م)؛ فقد أحدث هذا الرجل تحولات كبيرة في الأسرة الصفوية كان أولها أنه غير لقبه من " شيخ " إلى "سلطان "(٥)، وهذا ـ ولا شك ـ يحمل دلالة سياسية واضحة ، وهى الرغبة في الزعامة والسيطرة.

أيضا من التحولات المهمة والخطيرة التي أحدثها " جنيد " داخل الأسرة الصفوية أنه تحول من المذهب السني إلى المذهب الشيعي الاثنى عشري، وأمر مريديه وأتباعه بأن يتحولوا إليه، وهذا يعنى أنه قام بمحاولة ناجحة دمج فيها التصوف والتشيع، فتحول وحول مريديه إلى المذهب الشيعي بسهولة ويسر(٦).

أما التحول الثالث في الأسرة الصفوية فكان التحول من أسرة صوفية لا شأن لها بالسياسة والحروب إلى فرقة عسكرية تخوض المعارك من أجل أن تكون كيان سياسي لها، فقد كان "جنيد " يطمح في تأسيس دولة للصفويين على حساب الدول الحاكمة في إيران في تلك الفترة وهى دولتا القراقويونلو ، دولة الآق قويونلو(٧)

اللتان كانتا تتقاسمان حكم إيران في تلك الفترة.

بدأ " جنيد" أولى محاولاته العسكرية الرامية إلى تأسيس ملك الصفويين بإعلان الحرب ضد أقاليم جرجستان وداغستان وبلاد الجركس الواقعة في شمال غرب إيران، وأعلن أن هذه الحرب ــ وهي ضد أهل هذه البلاد المسيحيين ــ جهاد في سبيل الله، لكن في واقع الأمر كان الهدف منها سياسيا محضا كما ذكرت المصادر(٨).

اتجه " جنيد " بجيش قوامه عشرة آلاف لحرب تلك البلاد، لكنه وهو في الطريق اصطدم بجيش حاكم إقليم " شيروان" الواقع في شمال إيران، ودارت معركة بين الفريقين قتل فيها " جنيد"، وهزم أتباعه بعد أن قاتلوا قتالا مجيدا. وقد مثلت هذه الحرب أول ظهور عسكري وحربي للأسرة الصفوية، كما كانت بداية مرحلة جديدة للأسرة الصفوية أصبح فيها الغزو سياسة ثابتة(٩).

تولى السلطان "حيدر" زعامة الأسرة الصفوية بعد مقتل والده، وبعد توليه أمر أتباعه بارتداء غطاء للرأس له اثنتا عشرة ذؤابة كناية عن الأئمة الاثنى عشر(١٠)، وقد لقب أتباعه منذ ذلك الوقت بالقزلباش، وهى كلمة تركية تعنى: الرأس الحمراء. وقد كان لهؤلاء الأتباع دور مهم في قيام الدولة الصفوية على يد الشاه إسماعيل الصفوى بعد ذلك.

واصل " حيدر" سياسة أبيه في الغزو، ولكنه كان أكثر توفيقا من أبيه؛ فقد انتصر في معركتين خاضهما في " قفقاسيا " عامي ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م، و ٨٩٢هـ/١٤٨٧م(١١)، غير أنه اصطدم في عام ٨٩٣هـ/١٤٨٨م بجيش حاكم إقليم شيروان؛ وذلك لكون هذا الإقليم واقعا في الطريق الذي تسلكه الجيوش الصفوية، وانتهت المعركة بانتصار حاكم شيروان، ومقتل السلطان "حيدر"(١٢).

آلت زعامة الأسرة الصفوية بعد ذلك إلى إسماعيل بن حيدر، وكان ما يزال طفلا صغيرا، فضلا عن كونه مطلوبا من حكام أسرة الآق قويونلو المسيطرة على إيران في ذلك الوقت؛ وذلك لكونه وريث الصفويين الراغبين في تكوين دولة لهم في إيران، ولهذا قام أتباعه بإخفائه في بلدة " لاهيجان" الواقعة في إقليم " جيلان "

الواقع في شمال إيران[١٣].

أقام إسماعيل في "لاهيجان" حتى عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، وكانت تلك المدة بمثابة إعداد له على المستوى العلمي والعسكري، وكان المريدون يفدون إليه في سرية تامة، وبدأت في الأفق إرهاصات تجمع صفوي يرغب في تحقيق أهداف مذهبية وسياسية معينة[١٤].

كانت الحياة السياسية في إيران في تلك الفترة مهيأة لاستقبال وافد جديد عليها؛ فقد كانت الأوضاع في البلاد شديدة السوء نتيجة الصراعات المتواصلة بين أبناء أسرة الآق قويونلو، ولذلك قرر كبار مريدي الصفويين الخروج من لاهيجان ومعهم إسماعيل وذلك لتحقيق حلم الصفويين في تأسيس دولة لهم، فخرجوا منها في عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م[١٥]، واتجهوا إلى أردبيل ـ المقر الروحي للصفويين ـ وذلك حتى يتسنى لهم جمع المريدين وتكوين الجيش الذي يمكنهم من تحقيق الهدف الذي خرجوا من أجله[١٦].

في أواخر صيف عام ١٥٠٠م كان عدد المريدين الذين اجتمعوا حول إسماعيل قد بلغ حوالي سبعة آلاف، وقد أغرى هذا العدد إسماعيل بالتحرك للانتقام ـ أولا ـ من حاكم شيروان الذي قتل أباه وجده، وثانيا لتحقيق رغبة الصفويين في إقامة دولتهم، وقد تمكن إسماعيل من إلحاق الهزيمة بحاكم شيروان، والاستيلاء على هذا الإقليم وعلى بعض القرى المحيطة به، وقد عُد هذا النصر الخطوة الأولى في تأسيس الدولة الصفوية القوية[١٧].

أكسب هذا الانتصار إسماعيل قوة وجرأة، فلم يعبأ برسائل " ألوند ميرزا " حاكم الآق قويونلو التي تدعوه إلى التوقف عن التحرك في البلاد، ولذلك لم يجد حاكم الآق قويونلو أمامه سوى الدخول في حرب مع إسماعيل ومريديه، وكانت حربا عنيفة أظهر القزلباش فيها ضروبا من الشجاعة والفداء ـ على الرغم من الفارق الكبير بين قوة وعدد الجيشين ـ ، لكن النصر قد تحقق في النهاية لإسماعيل وجنوده، وقتل من جيش " ألوند ميرزا " حوالي ثمانية آلاف جندي كان منهم أعاظم قادته وأمراء جيشه[١٨].

أسرع إسماعيل بعد ذلك بالتحرك صوب مدينة " تبريز " عاصمة إيران في ذلك الوقت، ودخلها دخول الفاتحين المنتصرين، ولقب بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي الولي وذلك في عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م، وأصدروا السكة باسمه. وكان أول قرار اتخذه الشاه إسماعيل بعد أن جلس على عرش البلاد إقرار المذهب الشيعي الاثنى عشري مذهبا وحيدا لدولته، وفرضه على رعيته بالقوة الغاشمة. كما أمر الشاه أن تزاد في الأذان عبارة " أشهد أن عليا ولى الله"، وعبارة " حي على خير العمل"، كما أمر الناس أن يلعنوا الخلفاء في مجالسهم وطرقهم(١٩).

وهكذا قامت الدولة الصفوية في إيران بقيادة الشاه إسماعيل الصفوى، واستطاع هذا الفتى الصغير أن يخوض حروبا متتالية من أجل توحيد البلاد وتكوين دولة قوية موحده الأقاليم، وتم له كل ما أراد، فقد استطاع أن يبنى دولة قوية ، أخضع فيها كافة القوميات الإيرانية، واستطاع أن يجمع الناس تحت عباءة مذهب واحد هو المذهب الشيعي ، كما شملت دولته رقعة واسعة من الأرض فاقت مساحتها الدولة الساسانية القوية(٢٠).

أما العثمانيون فإن أصولهم تعود إلى قبيلة تركية تسمى " قابى "، وقد خرجت تلك القبيلة من أواسط آسيا متجهة إلى الغرب تحت قيادة " أرطغرل"، واستطاعت أن تنال ثقة "علاء الدين" سلطان سلاجقة الروم بعد أن ساعدته في حربه مع البيزنطيين عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، فكافأهم بأن أقطعهم منطقة تابعه له في شمال غرب الأناضول على الحدود البيزنطية ـ السلجوقية، لكن " أرطغرل" لم يقنع بذلك، وبدأ في التوسع في أملاك البيزنطيين تحت اسم السلاجقة. ولما مات عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م خلفه ابنه " عثمان " في الحكم، وهو الذي تنسب إليه الدولة، واستكمل سياسة أبيه في التوسع وكذلك أبناؤه حتى أصبحت الإمارة الصغيرة دولة كبيرة مترامية الأطراف امتدت أقاليمها في آسيا وأوروبا ثم في إفريقيا(٢١).

وقد بلغت الدولة العثمانية قمة مجدها السياسي وأوج ازدهارها وعظمتها في عهد السلطان "محمد الفاتح " ـ سابع سلاطين العثمانيين (٨٥٥هـ ـ ٨٨٦هـ/ ١٤٥١ـ ١٤٨١م) والذي حاز على لقب "الفاتح" عن جدارة بفتحه استانبول وقضائه على إمبراطورية الروم الشرقية، فسلم الأعداء قبل الأصدقاء بكفاءته

العسكرية، ودهائه السياسي. وقد قضى في مقام السلطنة نحو ثلاثين عاما، وخرج خلالها بنفسه على رأس خمسة وعشرين حملة عسكرية، والحق بالأراضي العثمانية ثمانية عشر إقليما جديدا[٢٢].

وعلى ذلك يعتبر الفاتح مؤسسا للدولة العثمانية في عصر الإمبراطورية ، فقد استمرت غزواته شرقا وغربا وشمالا دون أن تتوقف على مدى ثلاثين عاما، وكان أهم تلك الغزوات والفتوحات فتحه لعاصمة البيزنطيين " القسطنطينية "، فقد استمر حصاره لها حوالي ثلاثة وخمسين يوما (من ٦ أبريل حتى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م/٨٥٧هـ)، بقوات بلغ عددها أكثر من ربع مليون جندي، واستطاع في ظهر يوم ٢٩ مايو دخول القسطنطينية من البوابة الرئيسية، وصلى صلاة الظهر في كاتدرائية القديسة صوفيا إيذانا بتحويلها إلى مسجد، وأطلق على المدينة إسلامبول أو استانبول أي عاصمة الإسلام[٢٣].

لقد بلغت الدولة العثمانية مبلغا عظيما من التحضر والمدنية في عهد الفاتح؛ فقد حرص على جعل استانبول مدينة عالمية، فأنشأ فيها عددا كبيرا من المؤسسات الثقافية والاجتماعية، وأمر ببناء الكثير من المدارس الشهيرة، كما أمر بتدوين القوانين العثمانية التي كانت تطبق حتى عصره تحت اسم " قوانين آل عثمان "، حيث أضاف إليها القوانين التي أصدرها في عهده تحت اسم " فاتح قانون نامه سى"[٢٤].

أما بخصوص علاقة الفاتح بإيران فإنها اتسمت في أغلب أوقاتها بالتوتر والصراع؛ فقد كان هناك صراع دائر بينه وبين " أوزون حسن" زعيم أسرة الآق قويونلو حول ضم مدينة " طرابزون" آخر معاقل البيزنطيين في آسيا الصغرى وحسم في النهاية لصالح " محمد الفاتح " حيث استطاع أن يستولى على المدينة بعد أن هزم " أوزون حسن " في عام ٨٧٧هـ/١٤٧٣م[٢٥].

تولى بعد وفاة الفاتح ابنه السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ ــ ١٥١٢م/٨٨٦ ــ ٩١٨هـ)، وكان يبلغ من العمر عند وفاة والده ٣٤ عاما، وكان بايزيد لا يميل إلى الحروب والصراعات، ويفضل العلوم والآداب، ولذلك سماه بعض مؤرخي الترك "بايزيد الصوفي " [٢٦]، ولذلك كان طبيعيا أن يسود جو من الهدوء والسلام على

علاقة دولته بحكومة الآق قويونلو بإيران، لكن الأمور قد تغيرت بعد قيام الدولة الصفوية، وهذا ما ستوضحه المباحث القادمة.

المبحث الأول : العلاقات السلمية بين العثمانيين والصفويين

تعتبر الفترة التي ظهر فيها الشاه إسماعيل الصفوى في إيران من الفترات التي قلت فيها المعارك العسكرية في الدولة العثمانية، وذلك لطبيعة بايزيد المسالمة، فضلا عن ما اشتهر عنه من بغضه للحروب وإراقة الدماء، وزهده في الدنيا. بينما كان إسماعيل شابا متحمسا قويا ينشر معتقداته وأفكاره ويثبت دعائم ملكه بحد السيف[٢٧].

وقد رأى السلطان بايزيد أن الدولة الصفوية صارت واقعا ملموسا، وأن على الدولة العثمانية أن تحدد موقفها منها، فإما أن تستمر العلاقة السلمية بين دولته السنية وبين إيران بزعامة الشاه الشيعي، أو أن يقطع هذه العلاقة ويحل محلها النزاع والصراع.

والحاصل أن بايزيد اختار الحل الأول وهو بقاء العلاقات السلمية بينه وبين الإيرانيين، ولذلك أرسل سفيرا من قبله في عام ١٥٠٤م ومعه رسالة تتضمن تهنئة للشاه بجلوسه على العرش، بالإضافة إلى الكثير من الهدايا والنفائس. ولم ينس بايزيد أن يقدم النصح لإسماعيل في تلك الرسالة بأن يكف عن قتل السنة في إيران، وأن يترك التعصب مذهبه الشيعي[٢٨].

وفي المقابل اختار إسماعيل الحل ذاته، وهو بقاء علاقته بالعثمانيين على حالتها السلمية؛ لأنه رأى أنه ما يزال بحاجة إلى خوض الحروب في داخل إيران لتوحيدها تحت حكمه، وأن بقاء علاقته السلمية مع الجهات الخارجية ومنها العثمانيين يضمن له التفرغ لأعدائه في الداخل، ولذلك أكرم رسول بايزيد، وأرسل معه رسالة تفيض بالود وإظهار الصداقة، ومعها أيضا الكثير من الهدايا التي تعبر عن تقديره للسلطان العثماني[٢٩].

أتباع الصفويين في الأناضول وموقف بايزيد منهم:

سبق أن ذكرنا في التمهيد أن السلطان " جنيد " جد الشاه إسماعيل الصفوى قام بتحولات كثيرة في فكر وأسلوب الطريقة الصفوية في إيران، وقد أدى بعض هذه التحولات إلى قلق الحكام منه ومن طريقته فأمروا بطرده من إيران(٣٠).

وقع اختيار " جنيد" على آسيا الصغرى لتكون مقرا له، فخرج إليها عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م، وكانت تحت سيطرة العثمانيين. وقد رغب " جنيد " في كسب تعاطف السلطان مراد الثاني (٨٢٤-٨٥٥هـ/١٤٢١-١٤٥١م) ليسمح له بالإقامة في أراضي دولته، فأرسل إليه هدايا مع أحد خواصه، لكنه رفض أن يقيم في أراضيه، ورد الهدايا التي أرسلها له(٣١).

ورغم قصر الفترة التي ولى فيها " جنيد " أمر العثمانيين فإنه استطاع أن يجمع حوله عددا كبيرا من الأتباع الذين دانوا له ولأسرته بالولاء، وكان بعضهم يقوم بنشر الطريقة الصفوية في الأناضول مما أدى إلى تزايد أتباع الأسرة الصفوية في الإمبراطورية العثمانية بصورة ملحوظة، وبخاصة في المناطق الشرقية من الأناضول(٣٢).

وقد خرجت جموع كثيرة من هؤلاء الأتباع فور علمهم بجلوس إسماعيل على عرش البلاد ، وكانوا عونا له في كثير من حروبه التي خاضها داخل إيران. وقد دفعت النجاحات التي حققها إسماعيل في إيران أعدادا أخرى للهجرة من الأناضول إلى إيران، والبقاء بجوار الشاه إسماعيل(٣٣).

لم يكن السلطان بايزيد راضيا عن استمرار تلك الهجرات المتدفقة من دولته باتجاه إيران، فقد كان يدرك أن انضمامهم للشاه يمثل خطرا داهما على الدولة العثمانية ذاتها؛ فهؤلاء الرعايا الأتراك سيصبحون بعد انخراطهم في جيش الشاه سيفا مسلطا على بلاده ولذلك أصدر أمره بمنع تلك الهجرات(٣٤).

وأمام هذا القرار لم يجد إسماعيل بدا من أن يكتب رسالة إلى السلطان " بايزيد" يطلب منه أن يسمح لأتباع الصفويين بالذهاب إلى إيران لزيارة مقابر أجداده الصفويين للتبرك بها. وذكر له في الرسالة قيام حكام الحدود بمنع هؤلاء

المريدين من السفر، واعتراض طريقهم وإعادتهم إلى البلاد مرة أخرى(٣٥).

والناظر إلى هذه الرسالة يجد حرص الشاه إسماعيل على أن تظل علاقته طيبة بالسلطان العثماني؛ فنجده يُصدِّر الرسالة بالكثير من عبارات التبجيل والتفخيم والدعاء للسلطان بايزيد مثل قوله "ملجأ الإسلام،...... نصاب العدل، المنتسب للحشمة، سلطان سلاطين الإسلام، منكس رؤوس عبدة الأصنام، كهف الخواقين في العالم، ملاذ ملوك الأمم، الغازي في سبيل الله، والمؤيد من عند الله، السلطان العالم العادل والخاقان العارف الكامل ......، حضرة ملك الإسلام السلطان بايزيد خلد الله تعالى ظلال معدلته على المسلمين، وأيد أيام خلافته لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين"(٣٦).

والحقيقة أنني آثرت أن أنقل كثيرا من كلمات تلك المقدمة؛ لأنها توضح ـــ بجلاء ـــ رغبة إسماعيل في أن يُبقي على العلاقة السلمية بينه وبين السلطان بايزيد، وأن الحادثة التي دفعته إلى إرسال هذه الرسالة ـــ وهى منع أتباع أسرته من الهجرة إلى إيران ـــ لن تؤثر على علاقة البلدين.

ولا يختلف متن الرسالة عن مقدمتها؛ فقد عرض الشاه مطلبه مصحوبا بكلمات التبجيل والاحترام لبايزيد حيث يقول: "وإنه ليس بخاف على طريق زينة العالم، أنه من الثابت المحقق من قديم الأيام إلى الآن إرادة واعتقاد أهالي ممالك العالم، وخاصة أهل ديار الروم لأسرتنا ..... إلا أنه في بعض الأوقات والفترات يحدث في أثناء ذهابهم أن يعترض ملوك وحكام الحدود. لهذا من المتوقع أن تشمل طريقة عدل وأفضال ملكنا حضرة ملجأ خلافة جميع أهل الإسلام وخاصة سالكي مسالك الطريقة، وملوك ممالك الحقيقة، وأن يجيز طريدي ومعتقدي هذه الأسرة بزيارتها. وأن يأمر ملوك وحكام البلدان والمحافظين على الحدود و الأمصار"(٣٧).

وجاء رد " بايزيد " على رسالة الشاه مبينا سبب منعه لهؤلاء المريدين فقال بعد عبارات المديح والثناء : "...... وعند التحقق من هذا اتضح أن أكثر الرعايا من الجنود سيتوجهون إلى هذه الناحية بغرض الزيارة فيقعدوا عن الجهاد، مما يؤدى إلى حدوث نقص كبير في عدد الجيش. وكان قد صدر الأمر بأنه إذا قابل أحد الجنود الغزاة أحد الرعية فإنه بموجب القانون القديم والبصيرة المستقيمة يقبض

عليه ويرجعه إلى موطنه الأصلي مرة أخرى، وفور أن وصلتنا رسالتكم الشريفة أمرنا بألا يمنع أي فرد من هذه الطائفة يريد زيارة أولياء الله عليهم الرحمة شريطة عودته مرة أخرى. حتى يعمر طريق المحبة ويتحقق رغبة الطرفين ومقصود الجانبين، ويغدو رباط المحبة موصولا غير منقطع"(٣٨).

وبالرغم من شيوع روح المحبة والتفاهم في الرسالتين السابقتين فإن أفعال " بايزيد" خالفت أقواله؛ فقد أمر بترحيل عدد كبير من شيعة الأناضول إلى المناطق الحدودية التي تفصل بلاده عن اليونان، وإلى الأراضي التي تم فتحها مؤخرا في أوروبا، وذلك حتى يضمن عدم انضمامهم إلى شاه إيران(٣٩).

مرور جيش الشاه من الأراضي العثمانية، وأثر ذلك على العلاقات بين البلدين:

بعد أن استطاع الشاه إسماعيل أن يبسط سلطانه على معظم أقاليم الهضبة الإيرانية، رنا ببصره تجاه الأقاليم التي تمثل حدودا لإيران وتعد خطرا على أمنها، وكان أكثر تلك المناطق خطرا إقليم ديار بكر الواقع في شمال غرب إيران، وكان ذلك الإقليم ــ في ذلك الوقت ــ تحت سيطرة " علاء الدولة " أمير أسرة ذي القدر(٤٠) والذي سمح لبعض أمراء أسرة الآق قويونلو باللجوء إلى أراضيه بعد سيطرة الشاه إسماعيل على إيران.

ولهذا عزم الشاه إسماعيل على حرب " علاء الدولة " والسيطرة على إقليم ديار بكر، وأراد أن يفاجئ جيوش علاء الدولة بحيث يذهب إليهم من طريق لا يتوقعون مجيئه منها، لكنه صادف مشكلة ممثلة في أن عليه المرور من الأراضي العثمانية، وهذا من شأنه أن يمثل انتهاكا لسيادة العثمانيين على تلك الأراضي، ومن ثم يترتب على ذلك توتر في العلاقات بين البلدين.

وقد مرت جيوش الشاه بالفعل من الأراضي العثمانية، واستطاعت أن تنزل الهزيمة بعلاء الدولة، وتستولي على إقليم ديار بكر وذلك في عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م(٤١). لكن كان على إسماعيل أن يعالج تلك المسألة حتى لا تفسد علاقته بالعثمانيين، لذلك أرسل رسالة إلى السلطان " بايزيد الثاني " يعتذر له فيها

على اختراق أراضي دولته، فقال له بعد عبارات المديح الزائدة التي صـدر بهـا الرسالة:"إنه في الثاني عشر من ربيع الثاني عقدنا العزم في قريـة (نخربـورنى) وصممنا على التوجه للقضاء على الأعداء، وأما المحبة والعهد القائم بيننا فهو كما هو لم يختل ، وحدث أن عبرنا في هذه الأوقات السعيدة الساعات ولايـات الـروم فامرنا بمنع أي جندي من جنودنا التي ركابها النصر من التعرض لأي من أهـالي هذه البلاد. أما الجماعة التي تضررت من عبور جنودنا فقد استملناها وأعدناها إلى أماكنها الأصلية، ونحن أصلا لم نقترف في حقهم شيئا خطيـرا علـى الإطـلاق. والرجاء أن يحافظ حافظ الحفظ الإلهي بحكمته اللانهائية على الحب الذي بيننا"(٤٢).

والملاحظ من الرسالة السابقة أن الشاه إسماعيل أراد أن يؤكد علـى بقـاء المحبة والود بينه وبين العثمانيين، فكرر ذلك في بداية هذا المقطع في الرسالة وفي نهايته. كما أكد في رسالته على أن المناطق التي مرت بها الجنود لم تتـأثر بهـذا المرور على الإطلاق ــ بنص عبارته ــ، ولذلك فقد قابل السلطان " بايزيد" رسول الشاه بترحاب شديد وحمّله رسالة إلى الشاه تدل على قبوله هذا الاعتـذار، وعلـى رغبته في أن تبقى حالة الهدوء السائدة بين الدولتين .

وقد صدر السلطان العثماني رسالته إلى إسماعيل بالكثير من صفات المدح ومن ألقاب الفخامة والعظمة، كالمليك الأعظم، والمتوج الأكرم،ملك مماليك العجم، والمنسق الجديد لبلاد الترك والديلم، والمؤيد من عند الله، الملك الجليل(٤٣)، وغيرها من الألقاب الدالة على التقدير والاحترام ثم يؤكد له عدم تعرض رعايا دولته لأي أذى من مرور جنوده من أراضيه، وأن هذا الأمر لن يكون سببا لظهور الخـلاف بينهما(٤٤).

وهكذا مرت أزمة مرور جيش الشاه من الأراضي العثمانية دون أن تترك أثرا سلبيا على علاقة الدولتين، فالملاحظ أن الطرفين كانت لديهما الرغبة فـي أن تبقى حالة السلم عنوانا على علاقتهما السياسية في هذه الفترة، لكن في عالم السياسة سرعان ما تتبدل المواقف وتتغير الأحوال وهذا ما ستكشف عنه السطور القادمة .

ثورة " شاه قولي " المسلحة وأثرها على العلاقات العثمانية الصفوية :

سبق وذكرت أن للصفويين في الأناضول عددا كبيرا من المريدين الذين يدينون لهم بالولاء بالرغم من إقامتهم في أراضي العثمانيين، وقد كان هؤلاء الأتباع شوكة في جنب الدولة العثمانية، ومصدرا لكثير من القلاقل والفتن، وكان أكثر هذه الفتن ضراوة ذلك التمرد المسلح الذي قام به واحد من أتباع الأسرة الصفوية ويدعى " شاه قولي "[٤٥]، واسمه " قرة بيقيلى اوغلى".

كان والد " شاه قولي " ــ ويدعى "حسن خليفة" ــ واحدا من مريدي السلطان " حيدر " والد الشاه إسماعيل، وكان هذا الرجل يجيد القيام بدعوة الناس لاتباع المذهب الشيعي تحت غطاء التصوف والزهد، وقد أرسله " حيدر " إلى الأناضول لنشر الدعوة هناك، فاعتكف هو وابنه في إحدى المغارات وتظاهر بمظهر الصوفي الزاهد، وطارت شهرته في الدولة العثمانية، لدرجة أن " بايزيد الثاني " جعل له راتبا سنويا وكان يغدق عليه العطايا والهبات، ويطلب منه الدعاء ظنا منه أنه رجل صوفي، في حين أن الرجل كان من دعاة الشيعة، وكان يلقن زائريه تعاليم المذهب الشيعي[٤٦].

لما توفى " حسن خليفة " تسلم راية الدعوة بعده ابنه " شاه قولي "، وقد تزامن ذلك مع قيام الدولة الصفوية في إيران، وهذا من شأنه أن يعطى للرجل دفعة لزيادة نشاطه الدعوى في شرق الأناضول، وهذا ما حدث بالفعل، فقد جمع حوله عددا كبيرا، وبدأ يعلن البيعة للشاه إسماعيل الصفوى، وظهرت بذلك أهدافه السياسية وعقائده المذهبية[٤٧]، فنعته الأتراك بـ" شيطان قولي " في الوقت الذي كان بعض أتباعه يعدونه المهدي المنتظر الذي أرسله الله لإنقاذ البشر[٤٨].

عزم " شاه قولي " على الخروج على الدولة العثمانية في شكل ثورة مسلحة، فقرر الخروج في المحرم عام ٩١٦هـ/١٥١١م[٤٩]، وسار في عشرين ألفا من الأتباع، والعجيب أن الدولة العثمانية لم تقدر هذه الثورة حق قدرها، وظنوا أن فرقة صغيرة من جيوشها يمكنها القضاء على هذه الثورة المسلحة، لكن خاب ظنها؛ فقد تمكن هذا الثائر من هزيمة القوة العثمانية المرسلة للقضاء عليه، ودفعه هذا الانتصار إلى مهاجمة بعض أقاليم الدولة العثمانية، وكان كلما استولى على بلدة

من البلاد يقرأ فيها الخطبة باسم الشاه إسماعيل تأكيدا على تبعيته له(٥٠). كما قام أنصاره بتدمير بعض المساجد وإحراق بعض القرى، وهدموا مقرات الدراويش ومساكنهم وبعض أضرحة الأولياء(٥١).

لقد استطاع " شاه قولي " أن يستولي على عدد من بلاد الدولة العثمانية، وتمكن من إلحاق الهزيمة بعدد من جيوشها، ولم تتمكن الدولة من القضاء عليه بعد أن أرسلت له جيشا كبيرا بقيادة الصدر الأعظم، حيث دارت بين الفريقين حرب عظيمة في ربيع الآخر سنة ٩١٧هـ/ يوليو ١٥١١م، قتل فيها كثير من جنود الفريقين، وكان على رأس القتلى " شاه قولي "، والصدر الأعظم "على خادم باشا"، وانتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني، وفر من بقى من جنود " شاه قولي " إلى إيران احتماء بالشاه(٥٢).

إن فرار من بقى حيا من هؤلاء الثوار إلى إيران يؤكد ارتباط الشاه بذلك التمرد، والحقيقة أن الدولة العثمانية قد أدركت تلك العلاقة منذ بداية هذه الثورة؛ فالثوار منذ البداية أعلنوا ولاءهم للشاه ومبايعتهم له، حتى إنهم كانوا يخطبون باسمه في البلاد التي يسيطرون عليها إعلانا منهم بتلك التبعية.

تغيرت بعد هذه الثورة طبيعة العلاقة بين الشاه إسماعيل والسلطان بايزيد الثاني، وتبدلت علاقة الود التي كانت تظهر في مراسلاتهما إلى جفاء وكراهية، ولم يحاول الشاه إسماعيل تحسين هذه العلاقة وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه، إنما قام ببعض الأفعال التي تزيد من إشعال نار الفرقة والاختلاف بينه وبين السلطان بايزيد؛ فقد قام بعد انتصاره على الأوزبك (٥٣) بإرسال رأس زعيمهم " محمد شيباني " إلى السلطان العثماني كرمز للانتصار، وإظهار للقوة وشدة البأس(٥٤). هذا التصرف الغريب وغير المحسوب من الشاه إسماعيل أغضب السلطان العثماني؛ فقد كان قائد الأوزبك رجلا سنيا تربطه علاقة بالسلطان العثماني، فضلا عن أنه رأى أن ما قام به الشاه عملا استفزازيا لا معنى له، فليس هناك حالة من العداء والنزاع بين البلدين حتى يرسل له رأس القائد القتيل ليرهبه بها، ولهذا فقد كتب رسالة إلى إسماعيل تعبر كلماتها عن تغير واضح في علاقة البلدين، يقول بايزيد: " أيها الشاب قليل التجربة، اسمع نصيحة من والد، ولا ترق دماء المسلمين من أجل

قبول مذهبك الجديد، ولا تغفل الوعيد القائل: من قتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها، واجعل طريقة أجدادك العظام أنار الله برهانهم منهجا لك، وإرسال جلد شيبك خان لا يخيف سلاطين العثمانيين الشجعان"(٥٥).

إن الرسالة السابقة تبرهن بجلاء على تغير واضح في العلاقة بين بايزيد وإسماعيل؛ فقد غابت كلمات الدعاء وعبارات المديح والثناء وحلت محلها عبارات التقريع والازدراء، فالسلطان العثماني لم يخاطب الشاه باسمه، إنما خاطبه بعبارة " أيها الشاب " وهذا لا شك للتقليل من شأنه، ثم زاد من ذلك فنعته بقلة التجربة، وختم الرسالة بجملة توحي بأنه فهم مقصود إسماعيل من إرساله رأس " شيباني " قائد الأوزبك وهو إظهار القوة أمام العثمانين، فما كان من بايزيد إلا أن نفى له تحقق مراده؛ لأن سلاطين العثمانيين شجعان لا يخافون.

المبحث الثانى :"إرهاصات الصراع العثماني الصفوى"

النزاع بين أبناء بايزيد على العرش، وتولى السلطان "سليم " الحكم:

كان للسلطان " بايزيد الثانى" ثمانية أبناء، مات منهم خمسة في حياته، وبقى ثلاثة هم: الأمير أحمد وهو أكبر أبناء السلطان وكان يحكم " أماسيا"، وقو رقود، وكان يحكم " صاروخان" أو " مانيسه"، وسليم وهو أصغر الأبناء وكان يحكم طرابزون(٥٦).

وقد أعلن "بايزيد" أنه لن يتنازل عن الملك لأي من أبنائه وهو على قيد الحياة؛ وذلك مخافة أن يحدث شقاق ونزاع بينهم، لكن على الرغم من هذا الإعلان إلا أن الدلائل كانت تشير إلى عزم السلطان على تنصيب ابنه " أحمد " سلطانا للبلاد خلفا له؛ وذلك لأنه شعر بالضعف وعدم القدرة على الاضطلاع بشئون الحكم(٥٧).

كان رجال الدولة يميلون إلى تنصيب الأمير " أحمد " سلطانا خلفا لأبيه، وذلك لكونه صورة منه في حسن خلقه وجميل طباعه، في حين كان جنود الانكشارية(٥٨) وهم أهم فرق الجيش العثماني يرغبون في أن يتولى الأمير " سليم" السلطنة خلفا لأبيه؛ وذلك لكونه عسكريا فذا، وقائدا حربيا متميزا(٥٩).

وفي النهاية انتصر بايزيد للرأي القائل بتنصيب الأمير " أحمد "، فعزم على التنازل له عن العرش، وبعث إليه رسالة يدعوه فيها إلى الإسراع بالقدوم إلى " استانبول" ليجلس على العرش[٦٠].

لم يرض الأمير " سليم " عن القرار الذي اتخذه أبوه، فقد كان يرى أنه الأحق بخلافته على العرش لكونه مدعوما من المؤسسة العسكرية التي ترى أنيه الأصلح لهذا المنصب، ولذلك فإنه لم ينتظر وصول أخيه إلى " استانبول"، وسار على رأس مجموعة كبيرة من الجنود بهدف ثنى أبيه عن قراره وليس بهدف الدخول في حرب معه كما قال بعض الأمراء الكارهين له، وصوروا لأبيه أنه أتى لحربه، في حين أن " سليما" نفسه أعلن أنه جاء للتشاور مع أبيه فقط ولم يأت للحرب[٦١].

غير أن الحرب قد وقعت بين الابن وأبيه وذلك في الثامن من جمادي الأولى سنة ٩١٧هـ/١٥١١م، وقد هزم " سليم" هزيمة منكرة فر على إثرها من أرض المعركة[٦٢].

ظن الأمير أحمد أن الأمور باتت في صالحه بعد هزيمة أخيه وفراره بجيشه، فأسرع إلى استانبول لإتمام مراسم إجلاسه على العرش، لكن فوجئ برفض قادة الانكشارية توليه الحكم، وأنهم يرغبون في تولى سليم خلفا لأبيه، ليس هذا فقط، بل قام بعض فرق الانكشارية بنهب منازل الأمراء وكبار القادة، وسيطروا على كل المواني التي تحيط باستانبول، وقطعوا الطرق المؤدية إلى المدينة لمنع دخول الأمير " أحمد "، وأصروا على أن يتولى " سليم " الحكم خلفا لأبيه[٦٣].

اضطر "بايزيد" في النهاية أمام هذه الضغوط إلى النزول على رغبة الانكشارية وأرسل إلى ابنه سليم يدعوه إلى القدوم لتولى الحكم خلفا له، فقدم في صفر سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م، واستقبله رجال الدولة بحفاوة بالغة، وذهب إلى والده وقبل يده، فأمسك بايزيد بيد ابنه وأجلسه على العرش وأسداه بعض النصائح، كما أوصاه بأخويه خيرا، واستحلفه ألا يقتلهما، ثم ألبسه عمامة السلاطين فبايعه الوزراء وكل الحاضرين[٦٤].

بعد أن تنازل بايزيد عن الحكم لابنه سليم قرر أن يذهب إلى مسقط رأسه بلده " ديموتيقيا" ليعيش فيها بعيدا عن صخب السياسة ومتاعب الحكم، لكن القدر لم يمهله حتى يصل إليها، فقد وافته المنية وهو في الطريق، فمات فجأة في شهر مايو سنة ١٥١٢م/ ربيع الأول سنة ٩١٨هـ عن عمر يناهز ٦٧ عاما منها حوالي ٣٢ سنة[٦٥].

العلاقات السياسية بين السلطان سليم الأول والشاه إسماعيل:

دخلت العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين مرحلة جديدة بعد أن تولى السلطان سليم مقاليد الحكم؛ وذلك لأن السلطان الجديد لم يكن كأبيه في إيثار السلام والهدوء، إنما كان عنيفا متهورا، غضوبا، دائم الحركة، وقد أطلق عليه منذ الصغر لقب " ياوز" أي الصارم أو الرهيب لشجاعته وجرأته وعنفه[٦٦].

وقد أثرت هذه الصفات في طريقة معالجته للأمور؛ فقد كان ينظر إلى الشيعة في الأناضول على أنهم خطر يجب التصدي له بالقوة لمنع انتشاره في البلاد وبخاصة في شرق الأناضول، وهذا عكس سياسة أبيه المسالمة.

وعلى الجانب الآخر، كان إسماعيل الصفوى يرقب ما يحدث في الأناضول من نزاع بين أبناء بايزيد على تولى السلطة، وقرر أن يستغل تلك الأجواء المضطربة في توسيع الدعوة الشيعية في الأناضول، فأرسل أحد أتباعه إلى هناك للقيام بتلك المهمة التي كانت الفتيل الذي أشعل الصراع بين البلدين.

مما تجدر الإشارة إليه أن " نور على " حاكم " أرزنجان" شمالي غرب إيران، أرسله الشاه لنشر الدعوة الصفوية لامتلاكه القدرة على نشر المذهب الشيعي من ناحية، ولقدرته العسكرية في الاستيلاء على بعض أقاليم الأناضول من ناحية أخرى، وقد نجح هذا الرجل في أن يجمع حوله ما يقرب من أربعة آلاف من شيعة الأناضول، وتمكن من هزيمة أحد الجيوش العثمانية التي خرجت للتصدي له، واستولى على بلدة " طوقات" وخطب فيها باسم الشاه إسماعيل، ثم تحرك حتى وصل إلى " أماسيا"، وامتد نشاطه حتى وصل إلى وسط الأناضول[٦٧]. " وظل هذا القائد الشيعي شوكة في جنب الدولة العثمانية حتى بعد وصول سليم لحكم

البلاد"[٦٨].

كان أتباع "نور على " يتزايدون يوما بعد يوم، وكان نشاطه المذهبي يحقق نجاحا تلو الآخر، وقد استطاع أن يدخل في هذا المذهب واحدا من أفـراد الأسـرة الحاكمة وهو الأمير " مراد بن أحمد بن بايزيد" وهذا ـ دون شك ـ يوضح نجاح هذا الرجل في تحقيق أهدافه التي خرج من أجلها؛ فقد اسـتطاع أن يكـوّن قـوة عسكرية من شيعة الأناضول، واستطاع أن يستولى على بعض مـدن العثمـانيين مستغلا ما كان يحدث في الأناضول من صراعات واضطرابات، لكنه بعد أن رأى أن الأجواء السياسية بدأت تستقر بعد تولى " سليم" الحكم، آثر العودة إلى إيـران، وبخاصة بعد أن رأى استعدادات السلطان الجديد وعزمه على الدخول في حرب مع شاه إيران[٦٩].

حول أسباب الصراع العثماني ـ الصفوى:

اجتمعت مجموعة من الأسباب أسهمت في توتر العلاقـة الـسياسية بـين الدولتين الكبيرتين، ودفعتها في النهاية إلى الصدام المسلح، ومن هذه الأسباب:

(أ) محاولات الشاه إسماعيل المتتالية في إثارة الشيعة في الأناضول ونشر المذهب الشيعي في أراضى العثمانيين، وقد تواكب هذا مع وصول حـاكم قـوى هـو السلطان سليم الذي لم يكن في سماحة والده حتى يكتفي بمعاتبة الشاه فقط على هذه الأعمال، بل كان يرغب في القضاء على دولة الشيعة الفتية فـي إيـران لدعمها المتواصل للشيعة في بلاده.

(ب) قيام الشاه إسماعيل بإيواء الأمراء الثائرين على السلطان العثماني، وإعلانـه استعداده إرسال جيش لمساعدة الأمير أحمد بن بايزيد للوصول إلى حكم البلاد، كذلك استقباله الأمير مراد بن أحمد بن بايزيد بعد فراره من عمّـه الـسلطان سليم، وإكرامه غاية الإكرام[٧٠].

(ج) تأمين الجبهة الشرقية من الأناضول والتي أصبحت مسرحا خـصبا للدعايـة الصفوية، فقد رأى السلطان سليم أن حدوده مع إيران بحاجة إلى تأمين للحد من انتشار المذهب في تلك المناطق والمحافظة على أمن دولته من الاختراق مـن

تلك الجهة.

(د) من الأسباب التي أسهمت في وقوع الصدام بين الدولتين أن إسماعيل لم يرسل رسولا لتهنئة السلطان سليم بالجلوس على العرش خلفا لأبيه وقد عد السلطان العثماني تصرف الشاه إسماعيل امتهانا له، فصمم على مهاجمة إيران(٧١).

هذه بعض الأسباب التي دفعت السلطان سليم لعقد العزم على الدخول في حرب ضد الشاه إسماعيل الصفوى، وقد اتخذ السلطان سليم كثيرا من الإجراءات التي تضمن له النجاح في هذا الصراع، ومن هذه الإجراءات قيامه بقتل عدد كبير من شيعة الأناضول وذلك حتى يضمن عدم قيامهم بالثورة وإحداث الاضطراب في ظل غياب الجيش(٧٢). كما قام بتجديد بعض المعاهدات مع بعض الدول الأوروبية ليضمن هدوء واستقرار الجهة الغربية من الأناضول أثناء الحرب. ولم يكتف بذلك وإنما حشد ما يقرب من ١٢٠ ألف جندي بالعربات العسكرية وبسلاح المدفعية، وأمر بتدبير كافة الاحتياجات اللازمة لإعاشة الجنود في الحرب من ماء وطعام(٧٣).

وعلى الجانب الآخر، كان الشاه إسماعيل مشغولا بتمرد الأوزبك واحتلالهم أجزاء من خراسان، وكان يعمل على إخراجهم من أراضيه، ولذلك لم تكن أمامه فرصة كافية لتجهيز الجيش وتأمين البلاد بالقدر الكافي، وكل ما استطاع فعله هو تكليفه حاكم " ديار بكر" بتخريب القرى والطرق الواقعة في طريق الجيش العثماني، وأن ينسحب بعد ذلك إلى آذربايجان(٧٤).

المبحث الثالث : معركة چالديران(٧٥) ٩٢٠هـ/١٥١٤م

أحداث ما قبل المعركة:

عزم السلطان سليم على التحرك صوب إيران في صفر سنة ٩٢٠هـ/ ابريل سنة ١٥١٤م، وبعد أن تحرك بجيشه بدأت مراسلاته مع الشاه إسماعيل، فأرسل إليه يذكر له فيها الأسباب التي خرج من أجلها لحربه، ومما قاله له في هذه الرسالة: " فقد فرقت الجماعة البايندرية (يقصد أسرة الآق قويونلو)، وتعديت على إمارات البلاد الشرقية، وفتحت أبواب الظلم والجور على طريق المسلمين ....

وأشعت الفتنة والفساد، وحكمت بدواعي النفس والأهــواء...... وأطلقــت مقــابح أفعالك،ومساوئ أحوالك من نواميس الدين، كإباحة الفروج المحرمة، وإراقة الدماء المكرمة، وتخريب المساجد والمنابر، وإحراق المراقد والمقابر، وإهانــة العلمــاء والسادات ،.... وسبّت الشيخين الكريمين (أبو بكر وعمر رضي الله عنهما). لهذا أفتى أئمة الدين والعلماء المهتدين رضوان الله عليهم أجمعين بكفرك وارتدادك أنت وأتباعك.... وأعلنوا على رءوس الأشهاد أن جزاء هذا كله القتل"[٧٦].

ولم ينس السلطان العثماني أن يخبره في هذه الرسالة بعقده العــزم علــى الحرب فيقول: " ولتعلم أن النية قد انعقدت على أن نقطع يد ظلمك، ونقتلــع زرع جبروتك بتأييد الباري عز وجل ومساعدته، ونرفع فساد شرك وشرورك من فــوق رءوس العجزة والمساكين"[٧٧].

لم يرد الشاه إسماعيل على أولى رسائل السلطان سليم، في الوقت الذى كان السلطان العثماني يواصل سيره إلى إيران إلى أن وصل إلى حــدودها، ودخــل " أرزنجان" في جمادى الأول سنة ٩٢٠هـ/ يونيو ١٥١٤م، وعسكر علــى مقربــة منها، وجاءته الأخبار من عيون الجيش العثماني أن إسماعيل لا يفكر في الحرب، وأنه يصرف اهتمامه في قطع الطرق التي سيسلكها الجيش العثماني لإعاقة وصوله إلى إيران، ولذلك فكر السلطان العثماني في أن يرسل رسالة أخــرى إلــى الــشاه إسماعيل ليستحثه على الخروج للحرب[٧٨]، فكتب إليه رســالة ثانيــة لا يختلــف مضمونها كثيرا عن الرسالة الأولى، لكنه أرسل معها خرقــة وعصاه،ومــسواك، ومسبحة، مشيرا بذلك إلى أصل الشاه إسماعيل وإلى أجداده المتصوفة، وأخبره أن عليه الركون إلى هذه الأشياء مادام خائفا من الحرب، ولذلك لأنهــا عــدة أجــداده الدراويش[٧٩].

اضطر الشاه أمام هذا السيل من الهجوم المتواصل عليه عبر هذه الرسائل أن يرد، فأرسل رسالة إلى السلطان العثماني مصدرّة بعدد كبير من ألفاظ المحبــة والاحترام؛ ونعت السلطان بعبارات التعظيم والتبجيل، فجعله "ملجأ الإسلام، والدنيا والدين، والسلطان سليم شاه، أيده الله بالدولة الأبدية، وأدامه بالسعادة السرمدية"[٨٠].

وقد وصف الشاه إسماعيل ــ في هذه الرسالة ــ رسائل السلطان العثمانى

التي أرسلت إليها بأنها " تنم عن جرأة وعداوة، ويتجلى منها عداء شديد"، ويذكّره بأنه لم يكن بينهما إلا الصداقة منذ أن كان واليا على طرابزون. كما بين له السبب الذي جعله لا يتحرك إلى الآن لوقف زحف الجنود العثمانيين تجاه إيران بعدم رغبته في " أن تقوم فتنة تملأ الأرض كتلك التي كانت في عهد تيمور"، وأنه إلى الآن لا يريد.

ولم تخل رسالة إسماعيل من عبارات التهكم والاستهزاء التي تمثل ردًا على رسائل سليم السابقة، ففي هذه الرسالة ـ أيضا ـ نجده يخاطب السلطان سليم بقوله: " ولكن مثل هذه الأقوال عن أفكار الإلحاد لا تصدر إلا عن كاتب مدمن للأفيون كتبها تحت وقع تأثيره ثم أرسلها . وإنا نعتقد أن كل هذه المهاترات لم تكن لها ضرورة، وبناء عليه أرسلنا حقا ذهبيا مملوءا بالمكيف ومختوما بخاتمنا الهمايوني.... وإنا وقت كتابة هذه الرسالة على حدود أصفهان للعيد، وكنا مشغولين بالاستعداد للحرب، وأرسلت الرد فقط من أجل الصداقة .... وعندما ينتهي الأمر بالحرب لن يكون للتأخير أو التهاون مكان. ولكن فكر فيما ستصير إليه الأحداث والسلام"[٨١].

تمرد الانكشارية على السلطان العثماني:

لكم يكن الجنود العثمانيون على دراية بأراضي إيران الوعرة وبطرقها الصعبة، ولذلك ضاقوا من كثرة التوغل فيها بلا فائدة؛ فالشاه لم يخرج لملاقاتهم وصدهم عن التوغل في أراضي دولته. لكنهم لم يكونوا يعلمون أن الشاه إسماعيل قد تعمد ذلك، فقد خطط لسحب الجيش العثماني إلى داخل أراضي إيران الوعرة ليزيد من معاناتهم، ولينهك قواهم، وهذا ما حدث، فقد بدأ الجنود يشعرون بالتعب من طول الطريق، وبدءوا يحثون قادتهم على مطالبة السلطان بالعودة إلى الأناضول[٨٢].

ازداد غضب الانكشارية لعدم اكتراث السلطان العثماني بمطالبهم، وزاد من غضبهم وصول الأخبار بأن الشاه إسماعيل قد انسحب داخل إيران، وأن السلطان سليم قرر تعقبه داخل البلاد ، فتجمعوا حول خيمة السلطان سليم، وبدءوا يصرخون ويصيحون ساخطين بسبب طول سفرهم وقلة زادهم ومتاعبهم، ومعلنين الرغبة في

العودة ثانية إلى أراضى الدولة العثمانية، وقد تجرأ بعضهم وأطلق الرصاص على خيمة السلطان وقذفوها بالحجارة [٨٣].

لم يعبأ السلطان سليم بتلك التصرفات، وخرج إلى جنوده، وخطب فيهم خطبة ألهبت مشاعرهم، وأثارت فيهم مشاعر البطولة والإقدام، فتحولت الهتافات المطالبة بالعودة والانسحاب إلى هتافات بحياة السلطان والتأييد له[٨٤].

أصدر السلطان أوامره بالتحرك صوب إيران، وأرسل رسالة ـ هي الرابعة ـ إلى الشاه إسماعيل، وفيها يتعجب من جرأة الشاه في رسالته السابقة بعد أن ظل فترة طويلة رافضا الرد على رسائله، وقد اتهمه في هذه الرسالة بالجبن، وعدم الرجولة، وحثه على الخروج لقتاله قائلا: " فإذا انزويت كما كنت بعد ذلك في زاوية الرعب والهلع فحرام أن يطلق عليك اسم الرجال، وعليك أن تختار الحجاب بدلا من السيف، وعباءة النساء بدلا من الدرع"[٨٥].

وإمعانا في إذلاله والسخرية منه أرسل إليه مع هذه الرسالة مجموعة من ملابس النساء وأدوات الزينة وذلك لإشعاره بأن تصرفاته ليست من شيم الرجال[٨٦]. كما قام بكتابة بعض الرسائل على لسان بعض الأمراء التركمان الموجودين في جيشه تتضمن تأييدهم وولاءهم للشاه، وأن خوفهم من سليم هو الذي منعهم من الانضمام إليه، وأنهم مستعدون للانضمام إلى جيشه عندما تقع المعركة، وقد أرسل سليم هذه الرسائل للشاه ليدفعه للخروج إلى الحرب، وقد نجحت الخطة فقد جاءت الأخبار تفيد بأن إسماعيل قد انخدع بتلك الرسائل، وأنه خرج بجنوده تجاه صحراء چالديران[٨٧].

وصول الجيشين إلى صحراء " چالديران" وبداية المعركة:

وصلت الأنباء بأن الجيش الصفوى تحرك تجاه صحراء چالديران ، فأصدر السلطان سليم أوامره بالتحرك إلى هناك، ووصلت جنوده في أرض المعركة في غرة رجب سنة ٩٢٠هـ/ أغسطس ١٥١٤م، وذلك بعد أن قطعت مسافة تبلغ حوالي ٢٥٠٠ كيلو متر [٨٨] تسببت في إلحاق التعب والنصب بهم، ولولا قلة من المؤن كانت تأتى إلى الجيش العثماني من ميناء طرابزون عبر الوديان والفيافي

على ظهور البغال لكان مآل الجيش العثماني إلى الهلاك[٨٩].

كان الجيش العثماني مسلحًا بالمدفعية والبنادق، وكانت تسانده قـوة بحريـة كبيرة، فضلا عن أن قواته كانت تقدر بحوالي ١٢٠ ألف جندي[٩٠]. أمـا الجـيش الصفوى فقد اختلفت المصادر في تحديد عدد مقاتليه، فقد أوردت بعض المـصادر أنه كان يتساوى في العدد مع الجيش العثماني[٩١]، في حين أوردت بعض المصادر الأخرى أن عدد الجيش الصفوى لا يزيد عـن ٢٠ ألـف مقاتـل علـى أحـسن الفروض[٩٢]، وهناك من يرى ــ وهم أكثر الآراء ــ أن عدد الجيش الصفوى بلغ حوالي ٦٠ ألف مقاتل[٩٣]. وكان هذا الجيش مسلحا بالأسلحة التقليدية المعروفة في ذلك الوقت كالسيوف والرماح وغيرها، ولا توجد به أسلحة نارية كـالتي يمتلكهـا الجيش العثماني[٩٤].

أصدر السلطان العثماني أوامره بالهجوم وذلك في الثاني من رجـب سـنة ٩٢٠هـ/ الثالث والعشرين من أغسطس سنة ١٥١٤م، ودارت معركة من أشرس المعارك في تاريخ الصراع العثماني الصفوى[٩٥]، وقد استبـسل الـصفويون فـي القتال، وكانوا يرددون بعض الهتافات التي تعبر عن عقيدتهم الشيعية مثل " علـي ولي الله "[٩٦].

وبالرغم من الفارق في العدد والعتاد بين الجيشين، فإن الغلبة ــ في البدايـة ــ كانت للصفويين؛ فقد كان الجيش العثماني مرهقا من طول السفر والـسير فـي جبال إيران الوعرة ،لكن السلطان العثماني أصدر أمره إلـى جنـود الانكـشارية باستخدام السلاح الناري، فحصدت المدفعية جنود الشاه إسماعيل الذين كانوا يعدون هذا السلاح منافيا للفروسية والبطولة، ولم يمض وقت طويل حتى حلت الهزيمـة بالشاه وجنوده[٩٧]. وسقط عدد كبير من القتلى في صفوف الفريقين[٩٨]، ولم يـسلم الشاه نفسه في هذه المعركة؛ فقد سقط من على جواده، وجرحت يداه وساقه وكـاد أن يقتل لولا دفاع بعض المخلصين عنه حتى تمكن من الهرب من ساحة المعركة إلى " تبريز" ومنها إلى " همدان"[٩٩].

انتهت أحداث معركة " چالديران " بانتصار الجيش العثماني، فأمر الـسلطان سليم بإراحة الجنود، وعدم تعقب الفارين من جنود الشاه[١٠٠]، كما أمر بقتـل كـل

الأسرى الصفويين ماعدا النساء[١٠١]، ثم تحرك صوب "تبريز" عاصمة الصفويين ودخلها دون مقاومة في السادس من رجب سنة ٩٢٠هـ/السادس من سبتمبر سنة ١٥١٤[١٠٢]، وكان دخوله المدينة يوما مشهودا؛ فقد خرج العلماء والأعيان لاستقباله، واستطاع أهل السنة أن يظهروا مذهبهم دون خوف من الاضطهاد والتعذيب، وقد صلى السلطان الجمعة في مسجد " أوزون حسن " بعد أن أمر بترميمه، وتليت خطبة الجمعة بالشعائر السنية[١٠٣].

لم تطل إقامة " سليم" في تبريز، فقد غادرها بعد حوالي عشرة أيام من دخوله إليها؛ وذلك بسبب " قلة المؤن فيها وانتشار المجاعة في أطرافها"[١٠٤]، وقرر العودة إلى الأناضول بعد أن علم أن جنود الانكشارية ساخطين من بقائهم في إيران وعازمين على التمرد في حالة إذا ما قرر السلطان معاودة قتال الشاه إسماعيل، ولذلك أمر بالتحرك إلى أراضي دولته بعد أن حقق الهدف الذي خرج من أجله[١٠٥].

أما الشاه إسماعيل قد عاد إلى تبريز بعد حوالي ثلاثة أسابيع من مغادرة السلطان العثماني إياها، وقد حاول في تلك الفترة أن يعقد صلحا مع السلطان سليم تفاديا لواقع حرب أخرى بينه وبين العثمانيين، فأرسل سفيرين من قبله لعرض الصلح[١٠٦]، لكن السلطان سليم رفض مطلبه، وزج بالسفيرين في السجن[١٠٧].

نتائج معركة چالديران:

(١) بالنسبة للعثمانيين:

(أ) استطاع السلطان سليم أن يؤَمن الجزء الشرقي من الأناضول، وذلك بعد أن دخلت عدة مدن من إقليم" كردستان "تحت حكمه؛ فقد ثارت هذه البلاد على حكامها الإيرانيين بعد هزيمة الشاه، وساندوا السلطان العثماني وأعلنوا ولاءهم له، ولم يمض وقت طويل حتى انضمت خمس وعشرون مدينة للحكم العثماني كان من أهمها: ديار بكر، وماردين، والرقة، وأرزنجان[١٠٨].

(ب) دخلت إمارة " ذي القدر" تحت سيطرة العثمانيين، وذلك لرغبة السلطان العثماني في إتمام تأمين الحدود الشرقية لدولته ولعل الأمر الذي أسهم بشكل

كبير في إقدام السلطان على السيطرة على تلك الإمارة أن حاكمها " علاء الدولة " لم يقدم المساعدة اللازمة للجيش العثماني أثناء مروره من أراضيه لحرب الشاه مما أدى إلى تفاقم أزمة التموين بين القوات العثمانية، ولم يكتف " علاء الدولة " بذلك، بل قام بضرب قوافل الذخيرة الموجودة في مؤخرة الجيش العثماني(١٠٩). كل ذلك دفع العثمانيين للسيطرة على هذه الإمارة وقد تم لهم ذلك بعد انتصارهم على جيوش علاء الدولة، وقد چچقتل في هذه المعركة علاء الدولة بالإضافة إلى أربعة من أبنائه(١١٠).

(ج) أظهرت هذا المعركة للسلطان العثماني ولأسلافه من سلاطين العثمانيين أن هناك خطرا داخليا يهدد الدولة العثمانية ممثلا في الانكشارية، وقد أثبتت هذه المعركة أنهم سلاح ذو حدين، وأنهم خطر كامن إذا لم تتم السيطرة عليه، لهذا نجد أن السلطان سليمان القانوني قد وضع نصب عينيه فور توليه الحكم إصدار قانون ينظم الجيش وعلى رأسه فرقة الانكشارية(١١١).

(٢) بالنسبة للصفويين:

(أ) كانت هزيمة الشاه في چالديران ضربة قوية لقوته العسكرية، والدليل على ذلك أنه لم يقم بعدها بأية معارك مهمة أو فتوحات ذات قيمة، وقضى بقية أيامه في الملك متجولا في ولايات إيران المختلفة(١١٢).

(ب) فقدت الدولة الصفوية سيطرتها على العراق، فقد أعلن حاكمه الولاء للسلطان العثماني " سليم الأول"، وأصدر السلطان العثماني مرسوما بهذا، وكان ذلك مقدمة لفتح العراق في عهد السلطان سليمان القانوني(١١٣).

(ج) كان لهزيمة للشاه في چالديران نتائج خطيرة على علاقته بجنوده أو بعبارة أخرى " القزلباش"، فقد ضيعت هذه الهزيمة هيبة الشاه في عيونهم، وذلك لأنه منذ أن خرج على رأس هؤلاء الجنود وهو في الثالثة عشرة من عمره، حتى عام ٩٢٠هـ، حقق النصر في كل المعارك التي قادها، ولم يذق القزلباش تحت قيادته طعم الهزيمة، وقد أدى ذلك إلى زيادة اعتقادهم في قداسة الشاه، لدرجة أنهم لم يعتقدوا أن يدخل في حرب يخسرها(١١٤)، لكن بعد هذه الهزيمة القاسية،

سقطت تلك القداسة، وأدى ذلك إلى تجرئهم عليه، وإلى ازدياد نفوذهم في البلاط الصفوى وفي الحكم بشكل عام، وقد ساعدهم في ذلك تقوقع الشاه بعد الهزيمة الثقيلة التي منى بها(١١٥).

(د) أثرت هذه الهزيمة في نفس الشاه إسماعيل أثرا كبيرا، فقد كان قبلها ضحوكا، منطلقا، مقبلا على الحياة، وبعد الهزيمة لم ير ضاحكا مبتسما(١١٦)، وقد أمر بأن تكون رايات جيشه باللون الأسود، وارتدى الملابس السوداء، وأمر بأن تكتب كلمة "القصاص" على رايات الجيش، وقد جعلته هذه الهزيمة المرة يمضي أكثر أوقاته في اللهو والصيد وشرب الخمر، ربما في محاولة لتناسى مرارة الهزيمة التي حطمت كبرياءه بوصفه قائدا موهوبا(١١٧).

لم تتغير طبيعة العلاقات بين الدولتين بعد معركة چالديران، وظلت هذه العلاقة على حالها من الاضطراب والسوء، ورغم محاولات الشاه إسماعيل الرامية إلى تحسين علاقته بالعثمانيين فإن كل هذه المحاولات باءت بالفشل وبخاصة أن السلطان سليم لم يعش طويلا؛ فقد مات في عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م(١١٨) عن عمر يناهز الحادية والخمسين عاما، وخلفه في الحكم ابنه " سليمان خان" الذي يلقبه العثمانيون بالقانوني، والأوربيون بذي الجلالة(١١٩).

لم يعش الشاه إسماعيل نفسه طويلا بعد وفاة السلطان سليم، فقد توفي بعد أربع سنوات من وفاة السلطان العثماني، وخلال تلك السنوات الأربع لم نجد تقدما ملحوظا في تحسين العلاقات بين البلدين، وبقيت لفترات طويلة فاترة لا صداقة فيها ولا ود(١٢٠).

﴿الخاتمة﴾

في ختام هذا البحث أود أن أذكر بعض النتائج التي توصل إليها وهى:

(١) بدأت محاولات لتأسيس الدولة الصفوية قبل الشاه إسماعيل في عهد جده السلطان جنيد، ووالده السلطان حيدر، لكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح.

(٢) كانت الحياة السياسية في إيران مهيأة لقيام الدولة الصفوية علـى يـد الـشاه إسماعيل، فقد ضعفت حكومة الآق قويونلو وفقدت سيطرتها علـى الـبلاد، وذلك بسبب الصراعات المتواصلة بين أبنائها.

(٣) استطاع الشاه إسماعيل أن يفرض المذهب الشيعي الاثنى عشري على إيران، وجعل منه مذهبا رسميا ووحيدا، وبذلك تحولت إيران من المذهب السني إلى المذهب الشيعي منذ عهده، وبقيت عليه إلى الوقت الحاضر.

(٤) بلغت الدولة العثمانية قمة مجدها السياسي في عهد محمد الفاتح، فقد تمكن من فتح القسطنطينية، وجعلها عاصمة دولته القوية، وامتدت فتوحاتها في أوروبا وآسيا.

(٥) اتسمت علاقة الفاتح بإيران بالتوتر والصراع، فقد دخل في عدة معارك مع " أوزون حسن" زعيم أسرة الآق قويونلو وذلك من أجل السيطرة على مدينة " طرابزون" .

(٦) تميز العلاقات العثمانية ـ الصفوية بالسلام في عهد السلطان " بايزيد الثاني" وذلك لكونه محبا للسلام، ومؤثرا تجنب الحروب وإراقة الدماء.

(٧) كان للصفويين عدد كبير من الأتباع في الأناضول منذ عهد السلطان "جنيد"، وقد كان هؤلاء الأتباع شوكة في جنب الدولة العثمانية، وسببا مـن أسـباب نشوب الصراع بين الدولتين .

(٨) كان للشاه إسماعيل دور بارز في إشعال فتنة الشيعة في الأناضـول تحـت زعامة " شاه قولي"، وقد اتضح ذلك للدولة العثمانية، وكان ذلك بداية لتـوتر علاقة البلدين.

(٩) كان للمؤسسة العسكرية دور بارز في تولى السلطان سليم السلطنة خلفا لأبيه، فقد قامت بضغوط كبيرة على " بايزيد" للإذعان لها، وتمكنت من تحقيق مـا أرادت.

(١٠) تعددت أسباب الصراع العثماني ـ الصفوى، لكن السبب الأبرز ما كان يقوم

به الشاه إسماعيل من إثارة الشيعة في الأناضول بصورة مستمرة، وكان آخرها إرساله الداعى " نور على خليفة " لإحداث البلبلة والتوتر في الأناضول.

(١١) لم يكن الشاه إسماعيل مستعدا للدخول في حرب مع العثمانيين ، لكنه اضطر إليها اضطرارا، وقد نتج عن ذلك هزيمته في هذه المعركة .

(١٢) كان لسلاح المدفعية دور كبير وحاسم في الصراع الذي دار بين الفريقين في چالديران ، فقد حسم المعركة لصالح العثمانيين بعد أن كادت أن تحسم لصالح الصفويين.

(١٣) تعددت النتائج التي ترتبت على معركة چالديران، لكن على الرغم من ذلك فإن هذه المعركة لم تكتب النهاية لدولة الشاه في إيران، فقد كانت دعائم الملك الصفوى التي أقامها الشاه على أساس مذهبي قوية راسخة بحيث ضمنت للدولة الصفوية الاستمرار والبقاء.

* * *

الهوامش

(١) يتوافق هذا العنوان مع الواقع التاريخى لكلتا الدولتين في فترة الدراسة؛ فقد كانت الدولة الصفوية في طور القيام والتمكين، وكانت الدولة العثمانية في طور ازدهارها ومجدها السياسي.

(٢) هي دولة المماليك البرجية أو الجراكسة، قامت عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م عندما تولى الظاهر برقوق الحاكم بعد أن خلع " أمير حاجى " آخر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون، وقد استمرت هذه الدولة حتى عام ٩٢٢هـ/١٥١٧م.

انظر: د/سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٩٤م، ص ١٥٨. وانظر: د/قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، سنة ٢٠٠٧م، ص ١٤٦.

(٣) ذكرت بعض المصادر أن نسب الصفويين يعود إلى آل البيت انظر على سبيل المثال: خواندمير، حبيب السير في أخبار البشر، انتشارات كتابخانهٔ خيام، د ت، ج٤، ص٤٠٩، ٤١٠. و: بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، عربه: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة ١٣، سنة ١٩٩٨م ص ٤٩٣. و: براون ، تاريخ الأدب في إيران من بداية الحكم الصفوي حتى نهاية الحكم القاجاري، نقله إلى الفارسية: رشيد ياسمي، وترجمه إلى العربية: د/محمد علاء الدين منصور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سنة ٢٠٠٢م ، ج٤،ص ٢٧. لكن هذه الآراء لا تثبت أمام كثير من الأدلة التي تنفي عن الصفويين هذه النسبة وتؤكد على أنهم مجرد أسرة تركية شأنها شأن الأسر التركية التي حكمت إيران قبلها . انظر في تفصيل تلك المسألة: ممدوح رمضان أحمد ، الحياة السياسية والمذهبية للدولة الصفوية في عهد الشاه إسماعيل الصفوي، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، سنة٢٠٠٩م، لم تنشر، من ص ٦٣ إلى ص ٧٠.

(٤) براون، مرجع سابق، ج٤، ص٤٩.

(٥) ميشل مزاوى، أضواء على العلاقات الفكرية في العالم الإسلامي، ترجمه إلى الفارسية: يعقوب آژند، ونقله إلى العربية عن الفارسية وقدم له وعلق عليه: د/أحمد الخولي، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م. ص١٢٥.

(٦) بطروشوفسكى ، الإسلام في إيران، ترجمة د/السباعي محمد السباعي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٨٢م. ص٣٦٣.

(٧) الآق قويونلو، والقراقويونلو، لفظتان تركيتان تعنى الأولى " الشاه البيضاء "، والثانية " الشاه السوداء"، وذلك يعود إلى اقتناء قبيلة الآق قويونلو شياها بيضا، الآق قويونلو شياها

سودا فنسبتا إليها انظر : عباس العزاوى، تاريخ العراق بين احتلالين، مطبعة التفيض الأهلية، العراق، سنة ١٩٣٩م، ج٣، ص ٢٤.

(٨) توفيق حسين فوزى، رؤية الوثائق والمصادر التركية للصراع العثماني الصفوي ومقدماته في عهدي بايزيد الثاني وسليم الأول، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٨٦م، غير منشورة ، ص٢٢.

(٩) ميشل مزاوى، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(١٠) ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ٥٢.

(١١) توفيق حسن فوزى، مرجع سابق، ص ٢٣.

(١٢) غلام سرور ، تاريخ شاه اسماعيل صفوي، ترجمه محمد باقر آرام، عباسقلي غفاري فرد، مركز نشر دانشگاهي، تهران، ١٣٧٤ هـ ش ص ٣٤، ص٣٤.

(١٣) خواندمير، مرجع سابق، ج٤،ص٤٤١.

(١٤) أحمد الخولي، الدولة الصفوية تاريخها السياسى وعلاقتها بالعثمانيين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨١م، ص ٥٠.

(١٥) ميرزا محمد معصوم، تاريخ سلاطين صفويه، بسعي واهتمام د/ سيد امير عابد، تهران، سنة ١٣٥١ هـ ش، ص ٨.

(١٦) أحمد الخولي، مرجع سابق، ص٤٧.

(١٧) عباس حسن الموسوى، وكمال السيد، نشوء وسقوط الدولة الصفوية، مكتبة فدك، قم، سنة ٢٠٠٥م، ص٣٤.

(١٨) خواندمير، مرجع سابق، ج٤، ص٣٦٦.

(١٩) د/ أحمد الخولي، مرجع سابق، ٥٢.

(٢٠) وفاء عبد الحميد محمد، أثر النظام الإدارى على سقوط الدولة الصفوية، رسالة ماجستير، كلية الأداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٩٨م، غير منشورة.ص ٥.

(٢١) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د/إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة عام ١٩٨٦م.ص ١١٥.وانظر: د/إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، السعودية، الطبعة الثالثة، سنة ٢٠٠٢م، ص ١٠.

(٢٢) د/ سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية(النشأة ــ الازدهار)، وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ٢٠٠٧م، ص ٢١٤.

(٢٣) د/ إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق ، ص ٤٧،٤٨.

(٢٤) د/سيد محمد السيد محمود، مرجع سابق، ص ٢١٤.

(٢٥) د/أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ٦٨. وانظر: د/محمود السيد، تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، سنة ١٩٩٩م، ص ٢٩٩.

(٢٦) محمد فريد بك، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٢٧) توفيق حسن فوزى، مرجع سابق ص ٥١.

(٢٨) عبدالرضا هوشنگ مهدوى، تاريخ روابط خارجى ايران از ابتداى دوران صفويه تا پايان جنگ دوم جهانى، ص ١٦.

(٢٩) عبد الرضا هوشنگ مهدوى ، مرجع سابق، ص ١٦

(٣٠) ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ٤٩. والحاكم الذي أمر بطرده هو " جهانشاه بن قرايوسف" زعيم أسرة الآق قويونلو التي كانت تسيطر على كثير من أراضى إيران في تلك الفترة.

(٣١) والتر هينتس، تشكيل دولت ملى در ايران حكومت آق قويونلو وظهور دولت صفوي، ترجمة: كيكاوس جهانداري، شركت سهامي، انتشارات خوارزمي، چاپ سوم، تهران، ١٣٦٢هـ ش،ص٢٠. وقد عاد " جنيد"بعد ذلك إلى إيران بعد أن زال حكم القراقويونلو وحلت محلهم أسرة الآق قويونلو بزعامة "أوزون حسن". انظر: ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ٥٠.

(٣٢) جعفر المهاجر، الهجرة العاملية إلى إيران، أسبابها التاريخية ونتائجها الثقافية والسياسية، دار الروضة، بيروت سنة ١٩٨٩م، ص ٢١.

(٣٣) رسول جعفريان، صفويه در عرصه دين، فرهنگ وسياست، ناشر پژوهشكدهٔ حوزه ودانشگاه، قم، ١٣٧٩هـ ش.، ج١، ص٣٦.

(٣٤) د/ صديق صفي زاده، تاريخ پنج هزار سالهٔ ايران، تهران.د.ت.، ج٢،ص ١٦٠٥.

(٣٥) توفيق حسن فوزى، مرجع سابق ، ص ٥٢.

(٣٦) توفيق حسن فوزي، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٣٧) توفيق حسن فوزى، مرجع سابق، ص ١٥٢.

(٣٨) توفيق حسن فوزي، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٣٩) نيقولا ڤاتان، الفصل الثالث من كتاب: تاريخ الدولة العثمانية، إشراف: روبير مانتران، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٩٣م، ص ١٦٤.

(٤٠) أسرة " ذو القدر " أسرة تركمانية ــ على أرجح الأقوال ــ حكمت في مرعش وألبستان وملطية وخربوت من عام ٧٤٠ــ٩٢٨هـ/١٣٣٩ــ١٥٢١م، ومع أنهم كانوا داخلين بحكم موقعهم الجغرافي في منطقة نفوذ المماليك والعثمانيين، إلا أنهم كانوا يمثلون حكما مستقلا.

أما علاء الدولة فإنه يعد أشهر حكام هذه الأسرة، وقد تولى الحكم سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م، وبالرغم من أن العثمانيين قد ساعدوه في تولى الحكم، إلا أنه قد اتخذ موقفا معاديا لهـم، لهذا عده العثمانيون خائنا، وانتهت حياته بعد حرب چالديران سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤. انظر: ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٤١) د/ عباس إسماعيل صباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، دار النفائس، بيروت، سنة ١٩٩٩م، ص ٤٧.

(٤٢) توفيق حسن فوزى، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٤٣) د/ أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٤٤) عبد الحسين نوائى، شاه اسماعيل صفوي (اسناد ومكاتبات تاريخي همراه باياد داشتهاي تفصيلي)، انتشارات بنياد فرهنـگ ايران، تهران، ١٣٤٧هـ ش، ص ٦٣،٦٤.

(٤٥) كلمة "قولى " كلمة تركية تعنى العبد أو الأسير. انظر: د/مكرم عبد الفتاح نوفل، القاموس التركى الثلاثي، القاهرة سنة ٢٠٠٤م، (لا يوجد مكان النشر)،ص ١٩٠. وقد أطلق هذا الرجل ذلك اللقب على نفسه ليعبر عن منتهى التبعية للشاه، فالكلمة تعنى " عبد الشاه "، والطريف أن الأتراك يطلقون عليه " شيطان قولى " أى عبد الشيطان . (انظر : براون ، مرجع سابق، ج٤،ص٧١).

(٤٦) د/محمد عبد اللطيف هريدى، الحروب العثمانية الفارسية وأثرهـا فـي انحـسار المـد الإسلامي عن أوروبا، دار الصحوة،القاهرة، سنة ١٩٨٧م، ص ٤٦.

(٤٧) ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٤٨) د/ نبيل عبد الحى رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العـصر الحديث، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، سنة ١٩٨٨م ، ص ١٤٤.

(٤٩) د/ إبراهيم الدسوقى شتا، أثر الصراع المذهبى بين الشاه إسماعيل الصفوى والسلطان سليم في الأدب الفارسي، ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٦٧م، غير منـشورة، ص ٣٠.

(٥٠) د/ محمد عبد اللطيف هريدى، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٥١) نيقولاى إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ ـــ ١٥٧٤م، ترجمة: يوسـف عطا الله، راجعة: د/مسعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، سنة ١٩٨٨م، ص ٣٥.

(٥٢) د/ أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ٧١.

(٥٣) كلمة أوزبك كلمة مغولية تعني " سيد نفسه أو المستقل " انظر: أرمنيوس فامبرى، تـاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة د/ أحمـد محمـود الـساداتى، مراجعة وتقديم: د/يحيى الخشاب، مكتبة نهضة الشرق، الطبعة الثانية، القـاهرة، سـنة

١٩٨٧م، هامش٢، ص ٢٩٦، وقد عُرفوا بهذا الاسم نسبة إلى " أوزبك خان" وهو من أعقاب "جوجى بن جنكيز خان "، وقد دخل كثر من الأوزبك الإسلام في عهد أوزبك خان هذا. انظر: عباسقلى غفارى فرد، روابط صفويه واوزبكان (٩١٣ ــ ١٠٣١هــ) مؤسسة چاپ وانتشارات وزارت امور خارجه، تهران، ١٣٧٦هــ ش ، ص ٣٩.

وقد استطاع الأوزبك أن يقيموا لهم دولة في بلاد ما وراء النهر على حساب أملاك الدولة التيمورية، وذلك تحت قيادة محمد شيبانى الشهير بــ " شيبك خان " ، وتمكنوا من السيطرة على خراسان، و تاخمت حدودهم حدود الدولة الصفوية، ولهذا اشتعل صراع مسلح بين الفريقين انتهى بهزيمة " محمد شيبانى " على يد الشاه إسماعيل وذلك في عام ٩١٦هـــ/ ١٥١١م. انظر في تفصيل ذلك الكلام : فاميرى ، مرجع سابق ، من ص ٢٩٧ إلى ص ٣٣٦. و: رضا قلي خان هدايت، تاريخ روضة الصفاى ناصرى، ، تصحيح وتحشيه : جمشيد كيان فر، انتشارات اساطير، تهران، سنة ١٣٨٠ هــ ش، ج ١٢، من ص ٦٣٦٨ إلى ص ٦٣٧٢، و: عباسقلى غفارى فرد ، مرجع سابق، من ص ٤٠ إلى ص ١٢٠، و: د/ عبد العزيزنوار، تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٩٨م.من ص ١٩٠ إلى ص ١٩٢، و ممدوح رمضان أحمد ، مرجع سابق، من ص ١١٧ إلى ص ١٢٧.

(٥٤) على اكبر ولايتى، تاريخ روابط خارجي ايران در عهد شاه اسماعيل صفوي، موسسة چاپ وانتشارات وزارت امور خارجه، تهران ١٣٧٥ هــ ش ، ص ٦٣.

(٥٥) د/ أحمد الخولي، مرجع سابق ، ص ٧٢. و: على اكبر ولايتى، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٥٦) د/ أحمد فؤادمتولى،ود/ هويدا محمد فهمي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتهاوحتى نهاية العصر الذهبى، إيترك للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ٢٠٠٢م، ص ١٨٠.

(٥٧) توفيق حسن فوزى، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٥٨) الانكشارية كلمة تركية تعنى " الجندى الجديد" وهو اسم أطلق على فرق المشاة النظاميين التي تشكلت في عهد السلطان مراد الأول (٧٦١ـــ٧٩١هـــ/١٣٥٩ـــ١٣٨٩م)، ومن الجدير بالذكر أن الانكشارية يطلق عليها " العساكر البكتاشية " نسبة إلى الطريقة الصوفية البكتاشية التي كانت مقرها " آماسيا" بالأناضول . انظر: د/ سونيا محمد سعيد فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية، من خلال المصادر التركية، إيترك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م ص ١٣. وانظر: كليمان هوار، الإنكشارية، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، د ت، المجلد الثالث، ص ٧٦.

(٥٩) جان ــ لوي باكي ــ جرامون: الفصل الخامس من كتاب "تاريخ الدولة العثمانية،إشراف روبير مانتران، ترجمة: بشير السباعى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، مصر ١٩٩٣م،ج١،ص ٢٠٨.

(٦٠) توفيق حسين فوزى، مرجع سابق، ص ٧٩.

(٦١) إسماعيل حقى أوزون، تاريخ عثمانى، ترجمة د/ ايرج نوبخت، انتشارات كيهان، تهران، ١٣٦٩ هـ ش، ج٢، ص ٢٥٦.

(٦٢) إسماعيل حقى أوزون، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٥٩.

(٦٣) د/ سيد محمد السيد، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

(٦٤) توفيق حسن فوزى، مرجع سابق، ص ٨٤،٨٣.

(٦٥) محمد فريد بك، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٦٦) د/ أحمد فؤاد متولى، د/ هويدا محمد فهمى، مرجع سابق، هامش (٢)، ص ١٨١.

(٦٧) غلام سرور، مرجع سابق، ٩٢.

(٦٨) ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٦٩) عبد الرضا هوشنگ مهدوى، مرجع سابق، ص ١٨.

(٧٠) د/ أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٧١) د/أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٧٢) محمد فريد بك، مرجع سابق، ص ١٨٩.

(٧٣) عبد الرضا هوشنگ مهدوى، مرجع سابق ص ١٩. وانظر: عباس حسن الموسوى،وكمال السيد، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٧٤) د/ أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٧٥) چالديران أو چالديران أو تشالديران، اسم لواد يقع في شمال غرب آذربايجان، ويبعد عن تبريز حوالى عشرين فرسخا، وقد سميت بأسمه المعركة التي دارت فيه بين العثمانيين والصفويين .

(٧٦) عبد الحسين نوائى، مرجع سابق، ص ١٤٤،١٤٥. وانظر: توفيق حسن فوزى، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٧٧) عبد الحسين نوائى، مرجع سابق، ص ١٤٥. وانظر: توفيق حسن فوزي، السابق نفسه.

(٧٨) د/ أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٧٩) انظر النص الكامل للرسالة: على اكبر ولايتى، مرجع سابق، من ص ١٤٥ إلى ص ١٤٨. وانظر: عبد الحسين نوائى، مرجع سابق، من ص ٥٧ إلى ص ١٦١.

(٨٠) عبد الحسين نوائى، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٨١) على اكبر ولايتى، مرجع سابق، ص ١٥٧.وانظر: توفيق حسن فوزى، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٨٢) غلام سرور، مرجع سابق، ص ٩٧. وانظر: إسماعيل حقي أوزون، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٨٤.

(٨٣) د/ أحمد فؤاد متولى، و د/ هويدا محمد فهمى، مرجع سابق، ص ١٨٨.

(٨٤) إسماعيل حقى أوزون، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨٥.

(٨٥) د/ صديق صفي زاده، تاريخ پنج هزار سالهٔ ايران، تهران.د.ت.ايران ، ج٢، ص ١٥٩٤. وانظر: توفيق حسن فوزى، مرجع سابق، ص ١٦٩،١٧٠.

(٨٦) د/ أحمد الخولي، مرجع سابق، ص٧٧.

(٨٧) ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ١٥٩.

(٨٨) د/ أحمد فؤادمتولى، د/ هويدا محمد فهمى، مرجع سابق، ص ١٨٨.

(٨٩) د/ محمد عبد اللطيف هريدى، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٩٠) د/ ذبيح الله صفا، تاريخ ادبيات در ايران، انتشارات فردوس، تهران، چاپ نهم، ١٣٧٢ هـ ش، ج٢، ص ٢٧. وانظر: عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية ٢٠٥هـ/٨٢٠م ـ ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه: د/محمد علاء الدين منصور، راجعه: د/السباعي محمد السباعي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٩٠م، ص ٦٤٥.

(٩١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سليمان، مراجعة: د/محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، سنة ١٩٨٨م، ص ٢١٥. وانظر: د/ سيد محمد السيد، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٩٢) د أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ٧٨. وانظر: على اكبر ولايتى، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٩٣) د/ ذبيح الله صفا، مرجع سابق، ج٤، ص ٢٧. وانظر: عباس إقبال، مرجع سابق، ص ٦٤٥. و: حسين عماد زاده اصفهانى، تاريخ مفصل اسلام، انتشارات اسلام، تهران، چاپ هفتم، ١٣٧٠هـ ش، ص ٩٥٨. و: صديق صفي زاده، مرجع سابق، ج٢، ص ١٥٩٤.

(٩٤) ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ١٦٠.

(٩٥) عباس حسن الموسوى، وكمال السيد، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٩٦) د/ إبراهيم الدسوقى شتا، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٩٧) يصف " ابن زنبل" هذه الموقعة بقوله: " ثم سافر السلطان سليم إلى ملاقاة شاه إسماعيل، ووقع الاتفاق بينهما بأن يبطل النار، ويقاتل بالسيف والعود، فلم يلبث السلطان سليم غير

ساعة، وولى عسكره منهزمًا؛ لأن الروم لا قدرة لهم على ملاقاة الفرس من غير نار، فعند ذلك أمر أغاة اليكنجرية { يقصد الانكشارية } أن يرموا بالنار، فما كان إلا ساعة انهــزم شاه إسماعيل، فإن النار لا يطيقها أحد ". انظر: واقعة السلطان الغوري مع ســليم الأول، تحقيق عبد المنعم عامر، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٧م، ص ٢٣.

(٩٨) البدليسي، شرفنامه، ترجمة: محمد علي عوني، راجعة وقدم له: د/يحيــى الخــشاب، دار إحياء الكتب العربية، سنة ١٩٦٢م ، ج٢، ص ١٤٠.

(٩٩) عباس إقبال، مرجع سابق، ص ٦٤٦.

(١٠٠)القرمانى، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ص ٣١٤.

(١٠١)توفيق حسن فوزى ، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(١٠٢)براون، مرجع سابق، ج ٤، ص ٧٦.

(١٠٣)د/ أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ٧٩. وانظر: يلماز أوزوتونــا، مرجــع ســابق، ص ٢١٨.

(١٠٤) البدليسى، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٤٠، وانظر: القرمانى، مرجع سابق، ص ٣١٤.

(١٠٥)توفيق حسن فوزى، مرجع سابق، ص ١٣٠

(١٠٦)ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(١٠٧)براون، مرجع سابق، ج٤، ص ٧٧. وانظر: أحمد الخــولي، مرجــع ســابق، ص ٨٠. وانظر: عبد الرضا هوشنگ مهدوى، مرجع سابق، ص ٢١.

(١٠٨)معالى محمد محمد أمين زكى بك، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، ترجمة محمد على عونى، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٣٩م، ص ١٧٦، ١٧٧. وانظر: دونالد كواترات، الدولة العثمانية، تعريب أيمن أرمنازى، مكتبة العبيكان، السعودية، سنة ٢٠٠٤م.ص ٢١.

(١٠٩)د/ سيد محمد السيد، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

(١١٠) غلام سرور، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(١١١)ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(١١٢)عباس إقبال، مرجع سابق، ص ٦٤٦.

(١١٣)د/ محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربــي (١٥١٤ ــ ١٩١٤م)، مكتبــة الأنجلــو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨٥م ، ص ١٠٧. ولنظر: عباس العزاوى، مرجع سابق، ج٣، ص ٣٥٣. وانظر: د/ عبدالعزيز نوار، مرجع سابق، ص ١٨٨.

(١١٤)رضا قلى خان هدايت، مرجع سابق، ج ١٢، هامش (١)، ص ٦٣٨١.

(١١٥)علي اكبر ولايتي، مرجع سابق، ص ١٩٢. وانظر: صديق صفي زاده، مرجـــع ســـابق، ج٢، ص ١٦١٠.

(١١٦)سرجان ملكم، تاريخ كامل ايران، ترجمه: ميرزا اسماعيل حيرت، انتـــشارات افـــسون، تهران، ١٣٨٠ هــ ش، ص ٣٤٢، ٣٤٣.

(١١٧)عباس حسن الموسوي، وكمال السيد، مرجع سابق، ص ٤٥. وانظر: جعفر مهـــدى نيـــا، سلطنت ٢٥٧ پادشاه در ايران، انتشارات پاسارگار، تهران، ١٣٨٠ هـــــ ش .ج٢، ص ٢٦٣.

(١١٨)محمد فريد بك، مرجع سابق ، ص ١٧٩. وقد ذكر العيدروسي أنه توفي في عام ٩٢٤هــ وهذا بعيد عن الصواب. انظر: تاريخ النور السافر عن أخبـــار القـــرن العاشر،صـــححه وضبطه،محمد رشيد أفندي، نشر المكتبة العربية، بغداد، سنة١٩٣٤م، ص١١٩.

(١١٩)براون، مرجع سابق، ج٤، ص ٧٩.

(١٢٠)ممدوح رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ١٧١.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر العربية:

(١) البدليسي (شرف خان ت١٠٠٥هـ/١٥٩٦م)

ـ شرفنامه، ترجمة: محمد علي عوني، راجعة وقدم له: يحيى الخشاب (دكتور)، دار إحياء الكتب العربية، سنة ١٩٦٢م.

(٢) ابن زنبل (الشيخ أحمد الرمال ت ٩٦٠ هـ)

ـ واقعة السلطان الغوري مع سليم الأول، تحقيق عبد المنعم عامر، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٧م

(٣) العيدروسي (شمس الشموس محيي الدين عبد القادر بن عبد الله)

ـ تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، صححه وضبطه: محمد رشيد أفندي الصفار، نشر المكتبة العربية، بغداد، سنة ١٩٣٤م.

(٤) القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ت١٠١٩هـ)

ـ أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

ثانيا: المصادر الفارسية:

(٥) خواندمير (غياث الدين بن همام الدين الحسيني): حبيب السير في أخبار البشر، انتشارات كتابخانهٔ خيام، د ت.

(٦) رضا قلي خان هدايت : تاريخ روضة الصفاي ناصري، تصحيح وتحشيه : جمشيد كيان فر، انتشارات اساطير، تهران، سنة ١٣٨٠ هـ ش.

(٧) ميرزا محمد معصوم : تاريخ سلاطين صفويه، بسعي واهتمام سيد امير عابد (دكتر)، تهران، سنة ١٣٥١ هـ ش.

ثالثا: المراجع العربية والمعربة

(٨) أحمد الخولي (دكتور): الدولة الصفوية، تاريخها السياسي والاجتماعي، علاقتها بالعثمانيين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨١م.

(٩) أحمد عبدالرحيم مصطفى (دكتور): في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ٢٠٠٣م.

(١٠) أحمد فؤاد متولي (دكتور)، وهويدا محمد فهمي (دكتورة): تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، ايترك للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ٢٠٠٢م.

(١١) إدوارد جرانفيل براون، تاريخ الأدب في إيران:

– الجزء الرابع، تاريخ الأدب في إيران من بداية الحكم الصفوي حتى نهاية الحكم القاجاري، نقله إلى الفارسية: رشيد ياسمي، وترجمه إلى العربية: محمد علاء الدين منصور(دكتور)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سنة ٢٠٠٢م.

(١٢) أرمنيوس فامبري: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: أحمد محمود الساداتي (دكتور)، مراجعة وتقديم: يحيى الخشاب (دكتور)، مكتبة نهضة الشرق، الطبعة الثانية، القاهرة، سنة ١٩٨٧م.

(١٣) إسماعيل أحمد ياغي (دكتور): الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، السعودية، الطبعة الثالثة، سنة ٢٠٠٢م.

(١٤) بطروشوفسكي: الإسلام في إيران، ترجمة: السباعي محمد السباعي(دكتور)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٨٢م.

(١٥) جان – لوي باكي – جرامون: الفصل الخامس من كتاب "تاريخ الدولة العثمانية (ج١) إشراف روبير مانتران، ترجمة: بشير السباعى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، مصر ١٩٩٣م.

(١٦) جعفر المهاجر: الهجرة العاملية إلى إيران أسبابها التاريخية، ونتائجها الثقافية والسياسية، دار الروضة، بيروت سنة ١٩٨٩م.

(١٧) دونالد كواترات: الدولة العثمانية، تعريب: أيمن أرمنازي، مكتبة العبيكان، السعودية، سنة ٢٠٠٤م.

(١٨) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور): العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٩٤م.

(١٩) سونيا محمد سعيد البنا (دكتورة): فرقة الإنكشارية نشأتها ودورها في الدول العثمانية من خلال المصادر التركية، إيترك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.

(٢٠) سيد محمد السيد محمود (دكتور): تاريخ الدولة العثمانية " النشأة ــ الازدهار" وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة، نشر مكتبة الآدب، القاهرة، سنة ٢٠٠٧م.

(٢١) عباس إسماعيل صباغ (دكتور): تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، دار النفائس، بيروت، سنة ١٩٩٩م.

(٢٢) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية ٢٠٥هـ/٨٢٠م ــ ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه: محمد علاء الدين منصور (دكتور)، راجعه: السباعي محمد السباعي (دكتور)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٩٠م.

(٢٣) عباس حسن الموسوي، وكمال السيد: نشوء وسقوط الدولة الصفوية، مكتبة فدك، قم، سنة ٢٠٠٥م.

(٢٤) عباس العزاوي (المحامي): تاريخ العراق بين احتلالين، مطبعة التفيض الأهلية، العراق، سنة ١٩٣٩م.

(٢٥) عبد العزيز سليمان نوار (دكتور): تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٩٨م.

(٢٦) قاسم عبده قاسم(دكتور): عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، سنة ٢٠٠٧م.

(٢٧) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، عربه: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة ١٣، سنة ١٩٩٨م.

(٢٨) كليمان هوار، الإنكشارية، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث، ترجمة: أحمد الشنتناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبدالحميد يونس، راجعه: محمد

مهدي علام(دكتور)، دار المعرفة، بيروت، د ت.

(٢٩) محمد أنيس (دكتور): الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ــ ١٩١٤م)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨٥م.

(٣٠) محمد عبد اللطيف هريدي (دكتور): الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، دار الصحوة،القاهرة، سنة ١٩٨٧م.

(٣١) محمد فريد بك (المحامي): تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي (دكتور)، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة عام ١٩٨٦م.

(٣٢) محمود السيد (دكتور): تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، سنة ١٩٩٩م.

(٣٣) مكرم عبد الفتاح نوفل (دكتور): القاموس التركي الثلاثي، القاهرة سنة ٢٠٠٤م، (لا يوجد مكان النشر).

(٣٤) معالي محمد محمد أمين زكي بك: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، نقله إلى العربية: محمد علي عوني، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة١٩٣٩م.

(٣٥) ميشل م.مزاوي: أضواء على العلاقات الفكرية في العالم الإسلامي، ما بين سقوط الخلافة العباسية وقيام الدولة الصفوية (٦٥٦ ــ ٩٠٦ هـ/ ١٢٥٠ ــ ١٥٠٠م)، ترجمه إلى الفارسية: يعقوب آژند، ونقله إلى العربية عن الفارسية وقدم له وعلق عليه: أحمد الخولي (دكتور)، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.

(٣٦) نبيل عبد الحي رضوان (دكتور): جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، سنة ١٩٨٨م.

(٣٧) نيقولا ڤاتان: الفصل الثالث من كتاب: تاريخ الدولة العثمانية، إشراف: روبير مانتران، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

(٣٨) نيقولاي ايڤانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ ــ ١٥٧٤م ترجمة:

يوسف عطا الله، راجعة: مسعود ضاهر (دكتور)، دار الفارابي، بيروت، سنة ١٩٨٨م.

(٣٩) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سليمان، مراجعة: محمود الأنصاري (دكتور)، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، سنة ١٩٨٨م.

رابعا: المراجع الفارسية:

(٤٠) إسماعيل حقي أوزون، تاريخ عثماني، ترجمه ايرج نوبخت (دكتر)، انتشارات كيهان، تهران، ١٣٦٩ هـ ش.

(٤١) جعفر مهدي نيا: ـ سلطنت ٢٥٧ پادشاه در ايران، انتشارات پاسارگار، تهران، ١٣٨٠ هـ ش .

(٤٢) حسين عماد زاده اصفهاني: تاريخ مفصل اسلام، انتشارات اسلام، تهران، چاپ هفتم، ١٣٧٠هـ ش.

(٤٣) ذبيح الله صفا (دكتر): تاريخ ادبيات درايران، انتشارات فردوس، تهران، چاپ نهم، ١٣٧٢ هـ ش،.

(٤٤) رسول جعفريان: ـ صفويه در عرصه دين، فرهنـگ وسياست، ناشر پـژوهشكدهٔ حوزه ودانشـگاه، قم، ١٣٧٩هـ ش.

(٤٥) سرجان ملكم: تاريخ كامل ايران، ترجمه ميرزا اسماعيل حيرت، انتشارات افسون، تهران، ١٣٨٠ هـ ش.

(٤٦) صديق صفي زاده (دكتر): تاريخ پنج هزارسالهٔ ايران، تهران.د.ت.

(٤٧) عباسقلي غفاري فرد: روابط صفويه واوزبكان (٩١٣ ـ ١٠٣١هـ) مؤسسهٔ چاپ وانتشارات وزارت امور خارجه، تهران، ١٣٧٦هـ ش.

(٤٨) عبد الحسين نوائي: شاه اسماعيل صفوي (اسناد ومكاتبات تاريخي همراه باياد داشتهاي تفصيلي)، انتشارات بنياد فرهنـگ ايران، تهران، ١٣٤٧هـ ش.

(٤٩) عبد الرضا هوشنـــگ مهدوي: تاريخ روابط خارجي ايران از ابتداي دوران صفويه تاپايان جنـــگ دوم جهاني ١٥٠٠ ـــ ١٩٤٥، چاپ ششم، مؤسسة انتشارات امير كبير، تهران، ١٣٧٧ هـــ ش.

(٥٠) علي اكبر ولايتي: تاريخ روابط خارجي ايران در عهد شاه اسماعيل صفوي، موسسة چاپ وانتشارات وزارت امور خارجه، تهران ١٣٧٥ هـــ ش.

(٥١) غلام سرور: تاريخ شاه اسماعيل صفوي، ترجمه محمد باقر آرام، عباسقلي غفاري فرد، مركز نشر دانشـــگاهي، تهران، ١٣٧٤ هـــ ش.

(٥٢) والترهينتس: تشكيل دولت ملي در ايران حكومت آق قوينلو وظهور دولت صفوي، ترجمة كيكاوس جها نداري، شركت سهمامي انتشارات خوارزمي، چاپ سوم، تهران، ١٣٦٢هـــ ش.

خامسا: الرسائل العلمية:

(٥٣) إبراهيم الدسوقي شتا، أثر الصراع المذهبي بين شاه إسماعيل الصفوي والسلطان سليم العثماني في الأدب الفارسي، ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٦٧م، غير منشورة.

(٥٤) توفيق حسن فوزي، رؤية الوثائق والمصادر التركية للصراع العثماني الصفوي ومقدماته في عهدي بايزيد الثاني وسليم الأول، ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٨٦م، غير منشورة.

(٥٥) ممدوح رمضان أحمد، الحياة السياسية والمذهبية للدولة الصفوية في عهد الشاه إسماعيل الصفوي ٩٠٦ـــ٩٣٠هـــ/١٥٠٠ـــ١٥٢٤م، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، سنة ٢٠٠٩م، لم تنشر.

(٥٦) وفاء عبد الحميد محمد، أثر النظام الإداري على سقوط الدولة الصفوية، ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٩٨م، غير منشورة.

البحث الثانى

الأثر التجاري للاستيطان الصليبي في بلاد الشام

الأثر التجاري للاستيطان الصليبي في بلاد الشام

التعريف ببلاد الشام:

تعد بلاد الشام ذات مساحة كبيرة، يحدها من الغرب البحر الأبيض (بحر الروم)، ومن جهة الشرق البادية التي تبدأ من مدينة أيلة عند البحر الأحمر حتى نهر الفرات في العراق، ثم من نهر الفرات باتجاه الشمال حتى تصل إلى الحدود التركية السورية عند منطقة لواء الأسكندرونة. أما الحدود الجنوبية فإنها تتقابل مع مصر عند منطقة رفح، حيث الحد الفاصل بينهما، وعلى ذلك تم تقسيم منطقة بلاد الشام إلى أجناد وهي: جند فلسطين، وجند الأردن، وجند حمص، وجند دمشق، وجند قنسرين، والعواصم والثغور [١].

أما المنطقة الساحلية لبلاد الشام فهي عبارة عن شريط يقع شرق البحر المتوسط، وقد امتد من ساحل شبه جزيرة سيناء حتى خليج الاسكندرونة، ويتسع هذا السهل الساحلي في الشمال والجنوب، فيبلغ اتساعه عند مدينة عسقلان عشرين ميلا، ويضيق عند جبل لبنان، ثم يحدث انقطاع لهذا الامتداد الساحلي عند مصب نهر الكلب فيصل الجبل إلى البحر، وقد استفاد السكان من هذه الميزة، إذ أعطتهم موقعا إستراتيجيا مهما، فقد شكل ذلك مانعا طبيعيا أمام القوات الغازية للمنطقة، ونقطة التلاقي الثانية عند جبل الكرمل حيث تميز السهل الساحلي بخصوبة أرضه، وخاصة عند سهل صارونه وسهل فلسطين جنوبا، ومنطقة الساحل عند لبنان شمالا، وبرغم امتداد السهل الساحلي لهذه المسافة الطويلة، غير أننا لا نجد خليجا نهريا عميقا، غير خليج الاسكندرونة، وقد ترتب على ذلك عدم وجود موانى مهمة[٢].

أما فيما يتعلق بالمناخ السائد في تلك المنطقة الساحلية، فقد دخلت ضمن نطاق مناخ البحر المتوسط، التي امتدت من سواحل اسيا الصغرى إلى سواحل سوريا ولبنان وفلسطين، وقد سمي المناخ في السواحل الشامية، بمناخ سواحل غرب القارات [٣].

منتصف نوفمبر حتى منتصف فبراير، مع قدوم فصل جاف يشمل بقية السنة، وعندما تهب الرياح الغربية السائدة على البحر المتوسط مصحوبة أحيانا بالعواصف، فإنها تمتلئ بالرطوبة، ثم تصادف جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى في فلسطين فترتفع، وبارتفاع الهواء فإنه يتمدد وتسقط بعض محتوياته في شكل أمطار، ونتيجة لذلك فإن المنطقة الساحلية على السفح الغربي لجبال سورية تتلقى أكبر قدر من الأمطار، وتتناقص هذه الكمية وفقا لدرجة الابتعاد من الغرب نحو الشرق ومن الشمال نحو الجنوب [٤].

وتنعدم تلك الأمطار تقريبا في الصحراء السورية، لذا فالشتاء يكون شديد البرودة، وتغطي الثلوج قمم الجبال معظم فصول السنة، أما في فصل الصيف فيوجد اختلاف في المناخ، فبينما يكون مناخ السهل الساحلي حاراً رطباً، فإن المناطق الجبلية تمتاز بمناخ معتدل، وتأخذ الحرارة في الشدة، وتقل الرطوبة كلما اتجهنا شرقا حتى يصبح المناخ صحراويا في الصحراء السورية [٥].

أما مصادر المياه التي اعتمدت عليها الزراعة، فهي متنوعة بشكل كبير، فمنها الأمطار والأنهار والآبار والعيون، ونتيجة لتميز السهل الساحلي باستواء سطحه نسبيا، فإن عملية إنشاء قنوات الري فيه كانت أسهل من المناطق الهضبية، كما أن تربة هذا السهل الساحلي جيدة الخصوبة، تعطي محاصيل وفيرة الإنتاج نتيجة لطبيعة تركيبها الجيولوجي [٦].

تتميز منطقة الساحل الشامي بكثرة أنهارها، فقد تعددت وتنوعت من حيث الطول والقصر. فمنها نهر بردان الذي يمر بطرسوس، والذي ينبع من عيون تحت العقبة المعروفة بعقبة الأكواخ، وعندما يمتد قرابة ميل ينقسم إلى قسمين، أحدهما يمضي إلى مدينة هرقلة، ويصل الآخر إلى مدينة طرسوس، ليشق المدينة ثم يصب في البحر المتوسط [٧].

وإلى الشرق من جبال لبنان الغربية المطلة على الساحل، يوجد منخفض هو سهل البقاع، حيث تجري فيه المنابع العليا لنهر العاصي عند مغارة العين الزرقاء شمال هضبة بعلبك في لبنان، الذي ينحدر شمالا في سوريا ؛ لكي يصب في خليج الإسكندرونة [٨]، وكذلك توجد منابع نهر الليطاني الذي ينحدر جنوبا لكي

يصب بعد أن يتجه أفقيا في البحر المتوسط شمال مدينة صور [٩].

كذلك يوجد نهر إبراهيم، وكان يعرف قديما باسم نهر أدونيس، وينبع هذا النهر من مغارة، وله منبع آخر يقع في مرتفعات العاقورة، ويمتد هذا النهر من الشرق إلى الغرب، و يصب في البحر المتوسط جنوب مدينة جبيل [١٠].

بالإضافة إلى ذلك توجد مجموعة أنهار أخرى ثانوية، ومنها: نهر يدعى " أبو فطرس " بالقرب من مدينة الرملة [١١]، ويوجد نهر يدعى نهر بانياس الذي يجري مخترقا لقلعة المرقب، و يصب بعد ذلك في البحر المتوسط عند مدينة بانياس[١٢].

يخترق نهر المقطع أو قيشون، سهل مرج ابن عامر لكي يصب في البحر المتوسط شمال مدينة حيفا، ونهر العوجا، ويطلق عليه نهر اليركون الذي ينبع قرب مدينة طرابلس ويصب في البحر المتوسط شمال مدينة يافا، ونهر روبين ويصب في البحر المتوسط جنوب يافا [١٣]، ونهر الكلب الذي ينبع من جبال جنين ليصب جنوب جونيه، ونهر بيروت الذي ينبع من نبع شاغور حمانا [١٤].

أما فيما يتعلق بطبيعة التربة في تلك المنطقة، فقد إختلف تكوينها من تربة رسوبية في أودية أنهار العاص والليطاني ووادي نهر بردي، إلى التربة الجيرية في بعض المواضع مختلطة بالتربة الطينية، وبعضها يسوده الجير، وقد صلحت تلك الأنواع من التربة لنمو أشجار الفاكهة، وانتشرت في المنطقة الساحلية التربة الجيرية المختلطة بالتربة الرملية [١٥].

وبالنسبة للغطاء النباتي في هذه المنطقة، فإن النباتات الطبيعية تشبه مثيلاتها في بقية حوض البحر المتوسط، وخاصة في إيطاليا واليونان، وتتميز العائلات النباتية في هذا النطاق بمقاومتها لجفاف فصل الصيف، وتنمو في هذا الإقليم الساحلي أشجار البلوط أو السنديان والقسطل والجوز وغيرها من الأنواع، هذا بالإضافة إلى بعض الأشجار المثمرة الأخرى، مثل المشمش والخوخ واللوز[١٦].

أثر الاستيطان الصليبي على المدن الشامية:

أما فيما يتعلق بمدن الساحل الشامي، والتى تنحدر من الشمال إلى الجنوب،

فهى تتمتع بموانى طبيعية كانت أو صناعية، ونبدأ من الحدود الشمالية للساحل الشامي حيث توجد أول مدينة ساحلية، وهى مدينة السويدية (سان سيمون) Port St. Simeon ، التى تعد الميناء الطبيعي لمدينة أنطاكية Antioch الحبيسة في الظهير الشامي، حيث ينتهي عندها نهر العاصي (١٧)، وتم استخدام هذا النهر في النقل الداخلي، حيث كانت القوافل التجارية تأتي من داخل الظهير الشامي حتى مدينة أنطاكية، حيث يتم شحنها على سفن نهرية لكي تمضي في نهر العاصي لكي تصل إلى مدينة السويدية (١٨)، وقد دخلت مدينة السويدية ضمن نطاق كور قنسرين وقصبتها مدينة حلب (١٩)، وتعد مدينة السويدية بمثابة همزة الوصل بين بلاد الشام وآسيا الصغرى (٢٠).

وباتجاه الجنوب من السويدية، توجد مدينة اللاذقية Latakia، فهي تقع ضمن أعمال حمص، وتأخذ الاتجاه الغربي من مدينة جبلة (٢١)، وموقع مدينة اللاذقية جيد، فلديها مرفأ جيد محكم، بالإضافة إلى قلعتين متصلتين تقعان على تل مشرف على الربض (٢٢)، وتتميز مدينة اللاذقية بأنها من مناطق التجمع البشري، وقد ارتبطت هذه المدينة بالطرق البرية مع مدن الظهير الشامي، ومنها طريق حمص اللاذقية، كما ترتبط بطريق بري على الشريط الساحلي مع مدينة طرابلس(٢٣).

وتأتي مدينة جبلة Gibellum باتجاه الجنوب على امتداد الساحل الشامي، وهى عبارة عن مدينة صغيرة المساحة، غير أنها تمتعت بكثرة الخيرات بها (٢٤).

ومدينة بانياس Banyans جنوب مدينة جبلة، وهى بلدة على الساحل الشامي، وذات مساحة كبيرة، وبها الكثير من العيون المائية، وبها قلعة يمر بظاهرها نهر العاصي والنهر الأسود (٢٥).

وإلى الجنوب من مدينة بانياس يقع حصن طرطوس (أنطرسوس) Antaradus، وهو داخل واد حصين، وبعض جوانبه ليس له سور لاستغنائه عنه بالصخر (٢٦)، ويعد حصن طرطوس ثغراً لأهل حمص على البحر المتوسط، ويرتبط حصن طرسوس بطريق تجاري مع مدينة حمص (٢٧).

بينما تقع مدينة أروادس إلى الجنوب من جزيرة أرواد، وتقوم عليها مدينة

جميلة، وقد تأسست هذه المدينة بعد الفيضان [٢٨]، وهى جزيرة حصينة متقنة البناء لها أبواب مصنوعة من الحديد [٢٩].

وتأتي بعد ذلك مدينة طرابلس الشام Tripoli، وهذه المدينة تتألف من تجمعين رئيسين هما: الميناء والمدينة، وتبعا لذلك فإنه يوجد ترابط وتلاحم بينهما خاصة مع امتداد العمران والمناطق السكنية على طول الطريق الرئيس الذي يربط الميناء بالمدينة، وتقع مدينة طرابلس على رأس ممتد في البحر يعرف بإسم رأس الميناء، ومن المرجح أن هذا الرأس كان يتألف من جزيرة كبيرة وعدة جزر صغيرة مجاورة، ثم سرعان ما التحمت بمرور الوقت، واتصلت بالشاطئ المجاور[٣٠]، وقد اشتهرت مدينة طرابلس بانتشار البساتين التي تنتج الحمضيات والرمان، بالإضافة إلى ذلك ارتبطت مدينة طرابلس بمعظم مدن الظهير الشامي عن طريق عدة طرق برية [٣١].

وتقع مدينة جبيل Gibel ، بين طرابلس شمالاً وبيروت جنوباً ، وتعتبر تلك المدينة من أقدم المناطق السكنية الفينيقية [٣٢].

ومع امتداد الشريط الساحلي الشامي، توجد مدينة بيروت Baruth التي تعد من أعمال دمشق، وبينها وبين مدينة صيدا ثلاثة فراسخ [٣٣]، والمدينة عبارة عن رأس يدخل في البحر نحو ٩كم، وتقرب من نهر يسمى ماغوراسMagoras، الذي ساعد كثيرا على تخصيب تربتها [٣٤]، وقد امتازت بيروت بوجود ثغر جيد نشط، وهى تعد من أكثر الثغور نشاطا على طول الساحل الشامي، الأمر الذي ساعد على وجود خليج طبيعي محمي من الرياح الغربية، وقد تكون هذا الخليج نتيجة وجود نتوء بري نحو البحر [٣٥].

وتلي مدينة بيروت نحو الجنوب مدينة صيدا Sidon، فهى بلدة كبيرة ذات قلعة محاطة بأسوار عالية تقع على جبل مستطيل [٣٦]، وتبعد مدينة صيدا عن مدينة بيروت جنوبا نحو ٤٥ كم، وتقع في سهل ساحلي شديد الخصوبة وافر المياه، ولكنه يضيق وينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر، وتشغل المدينة رقعة من الأرض على شكل مثلث، قاعدته إلى الداخل ورأسه شبه جزيرة

أو نتوء بارز في البحر، ويتقدمها عدد من الجزر الصخرية تحمي الخليج الصغير الذي تكونه في الشمال الشرقي من العواصف البحرية [٣٧]، وقد تميزت صيدا بوجود ميناء توم مزدوج: الداخلي خصص للسفن المحلية التابعة للمدينة، والخارجي خصص للسفن الأجنبية[٣٨].

وبعد مدينة صيدا باتجاه الجنوب بنحو أربعين كم تأتي مدينة صور Tyre، وهى من أحصن الحصون التي على شط البحر وتتميز تربتها بالخصوبة، وقد قيل أنها من أقدم مدن الساحل التي شيدت [٣٩]، كما تمتعت مدينة صور بمرسى جيد للسفن، ذي تحصين كبير، ويوجد به قنطرة عليها سلسلة تمنع السفن من الدخول أو الخروج من الميناء إلا عند رفعها [٤٠].

وبعد ذلك تأتي مدينة عكا Acre التي تميزت بكبر المساحة، بالإضافة إلى وجود غابة من أشجار الزيتون بها [٤١]، وقد كانت مدينة عكا شديدة التحصين، حتى لقد شبهت بقوة تحصينها وقوتها بمدينة القسطنطينية التي توجد في آسيا الصغرى[٤٢]، غير أنه وجد بها عيب خطير في مينائها، ألا وهو وجود صخور تمتد بطول الساحل مما يؤدى إلى تحطم السفن عندها، فمثلت بذلك عيبا شديداً لهذا الميناء[٤٣].

وباتجاه الجنوب من عكا على الشريط الساحلي تأتي مدينة حيفا Haifa، حيث تقع على سفح جبل الكرمل على بعد أربعة أميال من عكا [٤٤]، وبها حصن قوي مطل على ساحل البحر [٤٥].

وإلى الجنوب من مدينة حيفا، تقع قلعة عثليت Atlit على بعد ثلاثة فراسخ وهى قوية وحصينة ومحاطة بالأسوار والتحصينات الخارجية، كما أنها محمية من ناحية البحر العميق [٤٦].

وباتجاه الجنوب من مدينة حيفا تقع قيسارية Caesarea عند خط عرض ٣٠ شمالا فيما بين حيفا شمالا وأرسوف جنوبا [٤٧]، وهى تعد من أعمال طبرية، وقد اتسمت باتساع رقعتها [٤٨]، ويرجع الفضل في إنشائها إلى هيرود الكبير Herod The Great، وتم ذلك في موقع مدينة قديمة تسمى برج ستراتو Tower Of

Strato، وقد حاول هيرود أن يجعلها المدينة الأولى ضمن مدن الساحل الشامي، وأن تتفوق على كل من مدينة بيت المقدس ويافا، ولم يكتف بذلك بل بذل جهوداً كبيرة في سبيل إنشاء ميناء للمدينة، فقام بصنع حاجز للأمواج عند الطرفين الشمالي والجنوبي للساحل أمامها، وذلك لعدم وجود تعرج طبيعي للساحل في هذه المنطقة، وقد أخذت أهميتها في الازدياد، وذلك لوقوعها على الطريق التجاري بين مصر ومدينة صور، وقد أطلق عليها اسم الإمبراطور الروماني أوغسطس Caesar Augustus، فصارت تعرف من يومها باسم قيسارية [٤٩]، وقد شهدت مدينة قيسارية ازدهاراً كبيراً في ظل الحكم الإسلامي لها، حتى قدوم الصليبيين في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، (الخامس الهجري) [٥٠].

ثم تأتي مدينة أرسوف الساحلية، وهي تقع بين قيسارية ويافا في مكان جميل تكتنفه الغابات الكثيفة الخصبة ذات المروج العشبية [٥١]، و تقع على بعد ثلاثة فراسخ جنوب مدينة قيسارية[٥٢]، وعلى بعد ٦ أميال شمال مدينة يافا ، وهي محاطة بأسوار قوية [٥٣].

وتلي مدينة أرسوف مدينة يافا Jaffa التي تقع غرب مدينة بيت المقدس بانحراف قليل نحو الشمال [٥٤] على الساحل الشامي، حيث يوجد طريق بري بين بيت المقدس ويافا، ويوجد لمدينة يافا ميناء، غير أنه ميناء خطير لا تستطيع السفن أن تقف فيه بسبب العواصف الجنوبية التي تهب على المنطقة [٥٥].

وتقع مدينة عسقلان Ascalon جنوب يافا، وهي على الشريط الساحلي للبحر المتوسط ولها قلعة حصينة، وتميزت بالجمال والنظافة، ومع ذلك لم يكن بها ميناء صالح لرسو السفن [٦]، وقد أطلق عليها عروس الشام [٧]، لاتساعها، وشهرت أسواقها التي فرشت بالرخام [٨].

وهكذا ساعدت طبيعة الساحل الشامي الصليبيين على الاستقرار في المدن الساحلية، لما حملته من مواني طبيعية، ساعدت الصليبيين على الاستقرار بها، وأيضا حرمان المسلمين من موانيهم البحرية، وساعدهم على استقبال المدد القادم من الغرب الأوربي، بالإضافة إلى تمتع تلك المدن بموقع جغرافي ممتاز، جعلها

على اتصال مع مدن الظهير الشامي، وعلى اتصال بالغرب الأوربي عن طريق السفن التجارية الإيطالية، التي كانت في موقع قريب من الساحل الشامي بالبحر المتوسط.

وعند استقرار الصليبيين في بلاد الشام، كانوا بمثابة أقلية بالنسبة إلى الأغلبية الوطنية الموجودة، و قد اعتمد الصليبيون علي إمدادات الغرب الأوربي و مجالها الواسع، تعويضا عن رقعة المساحة الصغيرة التي تمثلت في الشريط الساحلي، لذلك فقد تحكموا في مصير غرب آسيا التجاري [٥٧].

لاشك في أن ما قام به تحكم الصليبيين في مدن وموانى الساحل الشامي، التي مثلت المصب للقوافل التجارية القادمة من وسط آسيا، قد أدى إلى فقدان المسلمين لموانيهم البحرية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، مما نتج عنه بطبيعة الحال تعامل المسلمين مع الصليبين حتى يستطيعوا تصريف منتجاتهم.

وطوال فترة الاحتلال الصليبي لبلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين – (السادس والسابع الهجريين)، لم يقم الصليبيون بتأسيس أي مدن جديدة، فجميع المدن التي احتلها الصليبيون كانت لها تنظيمها الإداري والديني والسكاني[٥٨].فكل ما تركه الصليبيون هو القلاع الحربية، التي تحكمت في طرق التجارة بالظهير الشامي، حتى تستفيد من الضرائب التي كانت تفرض على تلك القوافل من ناحية، وتقوم بواجباتها العسكرية والتي شملت الهجوم على المدن الإسلامية، وصد هجمات الجيوش القادمة إليها من ناحية أخرى .

ومثلت الإمارات الصليبية في بلاد الشام الينبوع الثاني للتجارة بعد القسطنطينية بالنسبة للغرب الأوربي، وعلي هذا قامت العديد من المراكز التجارية علي طول الساحل الشامي و يأتي في مقدمة هذه المراكز مدينة عكا [٥٩]، وقد عدت هذه المدينة من أحصن مدن الساحل الشامي فهي مدينة كبيرة و حصينة [٦٠]، ويري بعض المؤرخين أمثال دوبويس بأن مدينة عكا كانت محطة من المحطات الدولية في ذلك الوقت، لأن التجار كانوا يتجمعون بها من مدن ودول عديدة[٦١].

وازدهرت مدينة عكا في القرن الثاني عشر و أوائل الثالث عشر الميلادي، (

السادس و السابع الهجريين)، فعكا [٦٢] المدينة كانت قاعدة مدن الصليبين بالشام، وملتقي تجار المسلمين والنصاري من جميع الأنحاء [٦٣]، فهي مدينة مزدحمة السكان وجدت بها كل وسائل الراحة [٦٤]، بل لقد ازدحمت سككها وشوارعها، وضاقت بها مواطن الأقدام [٦٥]، وأدي هذا الزحام الشديد إلي تلوث الهواء وانتشار الأمراض، فتعددت حالات الوفاة بها [٦٦].

فعندما احتل الصليبيون مدينة عكا، وبعد عمليات الإبادة التي قاموا بها، تغلبت عليهم النزعة التجارية فاهتموا بالمدينة من حيث نظافة شوارعها، و عملوا علي توفير وسائل الراحة لجذب التجار إليها.

ونال ميناء عكا شهرة واسعة في ذلك الوقت، حيث أصبح ميناء الصليبيين الأساسي، وذلك لعدة أسباب منها : تمتع الميناء بحماية طبيعية من جهات الشمال والشرق والجنوب، فكان مكاناً آمنا من العواصف، إضافة إلي ذلك وقوعه في نهاية طريق التجارة البري المار من وسط آسيا إلي غربها ومنها إلي سواحل البحر المتوسط الشرقية عبر بلاد الشام [٦٧].

ولعبت العوامل الطبيعية دوراً كبيراً في موانى الساحل الشامي، نظرا لما تمتعت به بعض هذه الموانى من حماية طبيعية، وأيضا وقوعها على الطرق التجارية التي تسلكها القوافل التجارية القادمة من الظهير الشامي، حيث يقوم التجار ببيع ما معهم من سلع ويقومون بشراء السلع الأخرى.

وقسم ميناء عكا إلي أربعة أقسام، كل قسم يستقل بذاته مع قيساريته وصوره، وحتي السلطة التابع لها، وقد جاء ذلك نتيجة للامتيازات التي منحها ملوك ممكلة بيت المقدس الصليبية، بمنحها للمدن التجارية الإيطالية، بالإضافة إلى الفرق الدينية الأخرى، وبذلك فقد شكل كل من فرسان الاسبتارية والتيتون كيانات منفصلة داخل المدينة مثلما كان الوضع مع جنوا و البندقية و بيزا [٦٨].

ويستنتج من ذلك أن المدن التجارية الإيطالية التي تصارعت مع بعضها من أجل الحصول على الامتيازات التجارية في مدن الساحل الشامي، قد زاحمتها الفرق والعناصر الدينية الصليبية التي تخلت عن عملها الأصلي وهو خدمة الأماكن

المقدسة، ولجأت إلى الاشتغال بالأعمال التجارية والمالية، مما يوضح لنا ما كانت عليه مدن الساحل الشامي من نشاط تجاري كبير، أغرى الكثير بترك وظائفهم الأساسية والانخراط في حركة التجارة بمدن الساحل الشامي.

وقد كانت قدرة الميناء الاستعابية تتسع لرسو عدد ضخم من السفن، التي كانت تأتيه من أماكن عدة من أجل ممارسة النشاط التجاري مع مدن الساحل الشامي، بل ومن أجل نقل الإمدادات الضرورية التي كانت تأتيه من الغرب الأوربي(٦٩)، حتى لقد ذكر الرحالة الألماني ثيودريش الذي زار المنطقة خلال المرحلة من ١١٧١ - ١١٧٣ م / ٥٦٧ - ٥٦٩ هـ، أن عدد السفن كان يصل أحيانا إلي ثمانين سفينة (٧٠).

وتوضح لنا تلك المعلومات أن ميناء عكا كان كبير الحجم، وإن قيل أن عدد السفن التي يتسع لها الميناء تصل إلي ثمانين سفينة، وإن كان هذا العدد يحتوي علي شيء من المبالغة، إلا أن ذلك يبرز مدي ما تمتع به هذا الميناء من شهرة حتي أدي ذلك إلي إقبال السفن عليه، بل وتكدسها في أوقات كثيرة، ويوضح ذلك أيضا أن الميناء صالح لرسو السفن في أوقات كثيرة من العام.

وأحيطت مدينة عكا بسور ضخم به أبراج، كما أضيف إلي ذلك خندق مائي كبير، ووزعت الأبراج عند كل زاوية لإحدي الشوارع مرفقة بسلاسل ضخمة، وقد عاش النبلاء في تلك المدينة عند الحافة الخارجية للمساحة المسكونة قري الأسوار، وعاش التجار في وسط المدينة حيث كان لهم شارع خاص بهم، وكان ميناء عكا مزدوجاً الأول داخلي خصص للسفن المحلية التابعة للمدينة، والثاني خارجي خصص لسفن نقل الحجاج والتجارة التي تمر بالميناء (٧١).

ويتضح من ذلك أن ميناء عكا بجانب ما تمتع به من حماية طبيعية، ضمنت له استقبال السفن على مدار العام، فقد حرصت القوى التي سيطرت على هذا الميناء أن تحميه صناعياً، من خلال إحاطته بالأسوار القوية والحصون المنيعة، حتى تتمتع السفن التي ترسو به بالأمان.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان ميناء عكا الداخلي لا يتسع للسفن الكبيرة، فكان

لزاما علي تلك السفن إما أن ترسو خارج الميناء بعيداً عن الحاجز، فتتعرض للرياح الجنوبية الغربية، وإما أن تمضي إزاء الساحل إلي ميناء صور القريب (٧٢)، أما الميناء الخارجي فقد خصص من أجل نقل الحجاج والتجار المارين بذلك الميناء من كل مكان (٧٣).

ويلاحظ أنه مع عدم قدرة السفن الضخمة الحجم الدخول للميناء، فقد كانت تذهب تحت ضغط الزحام على ميناء عكا، إلى ميناء مدينة صور القريبة منها، مما أدى إلى انتعاش الحركة التجارية بذلك الميناء الآخر، كما أن تلك السفن التي كانت تنتظر خارج الميناء حتى يتم إفراغ البضائع منها، كانت تتعرض للرياح القوية خارج الميناء، فيسبب لها الكثير من الأضرار ولأصحابها الخسائر المالية.

و ازدهرت التجارة بالجانب البري من مدينة عكا في خلال القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري، وذلك لوقوعها علي طريق التجارة القادم من مدينة دمشق في الظهير الشامي (٧٤)، وهو الذي كان يأتي من الصين والهند مارا بالخليج الفارسي، والذي يتفرع من هناك لعدة فروع برية ونهرية من البصرة إلي بغداد والتي مثلت منطقة الترانزيت الأولى، ومنها تخرج القوافل وتتفرع فرعين: أحدهما إلي ديار بكر والآخر إلي دمشق، وهي منطقة الترانزيت الثانية، ومنها إلى المدن الساحلية وأهمها عكا (٧٥).

وكانت مدينة دمشق بمثابة الوسيط بين الظهير الآسيوي والساحل الشامي الذي مثل معبراً بحريا مهما للغرب الأوربي، أخذت منه عكا وضعها وازدهارها التجاري النشط، حيث كانت تستقبل القوافل التجارية القادمة عن طريق البر من دمشق، وكذلك القوافل التجارية البحرية القادمة من الغرب الأوربي إلى الساحل الشامي.

وقد نشطت التجارة البحرية في ميناء عكا وذلك لوقوعه في منطقة متوسطة من الساحل الشامي، وحدث هذا الانتعاش التجاري في فصلي الربيع والخريف حيث كانت تهب الرياح الشرقية عليه والتي كان ينتظرها التجار من أجل السفر للشرق والرسو في الميناء وإنزال بضائعهم فيه (٧٦)، وأدت تلك الحركة النشطة إلي حدوث نوع من التعاون بين المستوطنين الصليبيين من جهة والمسلمين أهل البلاد

حدوث نوع من التعاون بين المستوطنين الصليبيين من جهة والمسلمين أهل البلاد من جهة أخرى والتي جنى الفريقان من ورائها أموالا طائلة [٧٧].

و أحدث الوضع القائم في منطقة الساحل وسيطرة الصليبيين عليه، احتكاكاً مباشراً بين الجانبين: الإسلامي والصليبي، وخصوصا في المجال الاقتصادي وأهمه الجانب التجاري الذي احتاجه كل من الجانبين، خاصة وأن المسلمين سيطروا على طرق القوافل القادمة من وسط آسيا إلى مدن الساحل الشامي.

واشتغل أهل عكا بالنشاط التجاري حتى أصبحت سككها وشوارعها تغص بالزحام، ولعل ذلك يرجع إلي الهدوء النسبي الذي ساد بين المستعمرات الصليبية والقوى الإسلامية [٧٨]، حيث وجدت علاقات سلمية بين الطرفين عندما توقفت المعارك الحربية بينهما، إلا أن المدينة تعرضت للكثير من الضربات التي كانت تعطل بدورها ذلك النشاط الكبير، ومنها الهزات الأرضية الخطيرة التي كانت تحدث دائما في بلاد الشام، حيث كانت تخلف وراءها دماراً هائلاً [٧٩].

لم تنعم المنطقة الساحلية الشامية بالهدوء، بل كانت تتعرض للكثير من الضربات مثل الزلازل التي كانت تدمر مدنا وقرى بأكملها، مما يؤدي إلى توقف حركة النشاط التجاري في تلك المدن.

وجاءت أيضا العوامل البشرية التي لعبت دوراً مهماً في مستقبل المدينة التجاري، ومنها معركة حطين التي وقعت بين المسلمين والصليبيين، التي تم على إثرها استرجاع السلطان صلاح الدين الأيوبي لمدينة عكا ١١٨٧م /٥٨٣هـ، حيث حدث توقف مؤقت للحركة التجارية نتيجة الوضع الحربي، غير أن صلاح الدين كان يميل إلى استمرار النشاط التجاري لعكا، فسمح للمدن التجارية بمواصلة أعمالها، ولم يكن السلطان يهدف إلي المحافظة علي علاقات تجارية مع الغرب فقط، بل أيضا للاطلاع على أحوال الصليبيين وتحسس أخبارهم لمحاولة استرداد بقية المدن الساحلية الشامية [٨٠].

و دخلت مدينة عكا في دائرة السياسة الحربية مع غيرها من المدن الساحلية في الصراع بين المسلمين والصليبيين، مما أدى إلي توتر في العلاقات والأنشطة

الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، شهدت مدينة عكا بداية النهاية وتمثل ذلك في الحرب التي وقعت بين كل من جنوا والبندقية خارج حدود المدينتين وتركزت في مدن الساحل الشامي وخصوصا في عكا حيث كان صداماً لا مفر منه (٨١)، فقد خططت البندقية لطرد التجار الجنوية من عكا في عام ١٢٥٨م / ٥٦٦هـ، لأنهم كانوا بمثابة منافس خطير لهم في تجارة الساحل الشامي المهمه (٨٢).

وشجع ارتفاع شأن عكا كمدينة وميناء التجار من كافة الأنحاء التمركز فيها، ونتيجة للأرباح والمكاسب التجارية التي حققوها زاد طمعهم أكثر، فوقع بينهم الصدام المسلح الذي انتقل معهم من مدينة إلى أخرى من مدن الساحل الشامي، مما كان ذلك من الأسباب الرئيسة للقضاء على الوجود الصليبي بمدن الساحل الشامي.

وتوالت الكوارث على مدينة عكا ومينائها، ومنها الخسف الذي وقع بالقرب من الساحل، حيث كانت توجد عدة جزر صغيرة قريبة من ميناء عكا، تركز فيها الصليبيون، فماتوا جميعاً واختفت تلك الجزر بتجارها وبضائعها، وساد اضطراب عام في عكا نتيجة لذلك الحادث الرهيب الذي وقع في عام ١٢٦١م/ ٦٥٩هـ، واهتزت الحركة التجارية للمدينة لذلك الحدث (٨٣).

ومن الملاحظ أن العوامل الطبيعية مثل حركات الخسف والزلازل، جاءت بجانب المعارك الحربية التي شهدتها المدينة بين البنادقة والجنوية، التي أدت إلى تدهور عكا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

ووجهت الضربة الأخيرة لميناء ومدينة عكا على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ، حيث استعاد مدينة عكا من الصليبيين، والتي كانت أخر ما تبقى من مملكة بيت المقدس الصليبية، حيث وقعت معركة خاضها الصليبيون وكافة المدن التجارية الأوربية المتمركزة بالمدينة وأبرزهم البنادقة والذين استطاعوا الفرار من المدينة بسفنهم بعد أن استقروا بها قرابة ٢٠٠عام، جنوا من ورائها أرباحاً طائلة (٨٤).

وهكذا يتضح أن عكا مع فتح المماليك لها، وتحريرها من قبضة الصليبيين، لم تعد كسابق عهدها، حيث تم تدمير دفاعاتها، حتى لا تكون مطمعاً مرة أخرى للصليبيين، وتوقفت بها الحركة التجارية.

وبعد سقوط عكا في أيدي المسلمين، تم منع الأوربيين من ممارسة التجارة المباشرة مع المسلمين، وبدأ التجار الأوربيون في التوجه للاستقرار في قبرص التي اتخذت مكانة عكا التجارية، وقام تجار بلاد الشام بنقل سلعهم التجارية من الساحل الشامي إلى مدينة فاماجوستا FAMAGUSTA بقبرص، ليتمكن الأوربيون من شرائها، وأصبحت جزيرة قبرص بمثابة مفتاح التجارة الدولي ومركزاً لالتقاء التجار من كل مكان (٨٥).

و كانت عكا قد اتخذت مكان مدينة بيت المقدس، وخاصة بعد استعادة المدينة مرة أخرى للمسلمين، حيث كانت مركزاً لملوك بيت المقدس الصليبية، والعاصمة الصليبية في الساحل الشامي، ولذلك مع سقوطها لم يعد للصليبيين مكان أو مركز لكي يتجمعوا فيه .

وجاءت مدينة صور في المركز الثاني بعد عكا، فهي تقع شمال ميناء عكا، وتعد من الثغور المهمة، وقد تشكل ميناؤها على هيئة الكف يحيط به البحر من جميع الجهات إلا جانباً واحداً والذي يوجد به بوابة (٨٦)، وتم تزويد هذا الجانب بحصون قوية جداً وخنادق وأبراج وجدران، وهذا الجانب له مدخلان، وتمت حراسته بالبوابات الرباعية الأبراج (٨٧).

و تمتعت مدينة صور بشهرة كبيرة في منطقة الساحل، فمثلت ثغراً مهماً لكل من يتحكم بها، لذلك فقد وجدت مليئة بالعديد من الحصون والبوابات القوية التي دلت على مكانتها المهمة ذلك الوقت.

أما ميناء صور فليس له مثيل سوى ، ميناء عكا(٨٨) لأن به ميناءين واحد داخلي مخصص للسفن المحلية التابعة للمدينة، والآخر خارجي وخصص للسفن الأجنبية (٨٩)، وبين الميناءين توجد أبراج كبيرة ومرتفعة يربط بينها سلاسل ضخمة، تمنع الدخول أو الخروج عند الميناء إلا بعد رفعها (٩٠).

ويرجح أن ميناء صور شهد حركة نشطة، سواء في الميناء الداخلي أو الخارجي مما جعل السلطات التي سيطرت على المدينة التحكم في تلك الحركة تقوم بإنشاء الأسوار والأبراج العالية لكي تنظم الحركة التجارية من ناحية، ولكي تحمي المدينة نفسها من ناحية أخرى.

وقد ضمت صور العديد من الأبنية الجميلة، حتى أنه يقال أنها فاقت في جمالها معظم مدن الساحل الشامي (٩١)، أما شوارعها وسككها فقد كانت نظيفة، وأهلها امتازوا بالتسامح والمعاملة الحسنة مع المسلمين، بل أنهم ألين في طبائعهم وسلوكهم عن غيرهم من أهالي المدن الأخرى، وظهر ذلك في معاملتهم للمسلمين(٩٢).

وقد حدثت اختلافات عرقية كبيرة بين العناصر الصليبية التي استعمرت المدن الساحلية الشامية، ومن ذلك طبيعة سكان مدينة صور الساحلية الذين أظهروا مرونة أكثر في التعامل مع المسلمين، وخاصة في المعاملات التجارية، على العكس من سكان المدن الساحلية الأخرى الذين كانوا يعتدون على التجار المسلمين في كثير من الأحيان.

وامتلكت مدينة صور مرفأ مائياً صالحاً لرسو السفن، غير أنه كان به عيب وهو وجود صخور من جهة الجنوب كانت تعوق حركة الملاحة للميناء، فكان على السفن التى تريد الدخول للميناء أن تدخل من جهة شمال المرفأ مع الابتعاد عن تلك الصخور، ووجد عائق آخر، وهو أن تلك الصخور كان العمق القريب منها قليلاً، مما كان يعرض السفن لخطر التحطم (٩٣).

وهذه العيوب التي وجدت في ميناء صور، قد عملت على إعاقة عملية الملاحة من وإلى الميناء، مما أدى إلى تكبد السفن الكثير من المشقة حتى تستطيع الدخول إلى الميناء، وذلك عن طريق سلوك اتجاه معين للوصول إلى الميناء، وحتى عندما تتفادى ذلك الخطر، كانت تواجه خطر التحطم بسبب العمق القليل عند تلك الصخور مما جعله ميناء غير آمن نسبيا.

وعدت صور مخرجاً لتجارة دمشق ومنتجاتها، لذلك جرى صراع للتحكم فى

مرتفعات الجولان بين الجانبين المسلم والصليبى للسيطرة على طريق التجارة بين دمشق وصور [٩٤]، واقتنت صور ثروات طبيعية وتجارة واسعة، بل وكانت يتم فيها تصنيع الأصباغ، وهي حرفة صباغة الأقمشة بالألوان المختلفة، وأشهر منتجاتها الأقمشة الأرجوانية وأطلق عليه الأرجوان الصوري النبيل [٩٥].

ويتبين مما سبق أن مدينة صور بالإضافة إلى موقعها وتحصيناتها المحكمة تميزت بشئ آخر، وهو صناعة الأصباغ التي نالت منتجاتها جودة عالمية في تلك الفترة، إلى جانب الثروات الطبيعة التي وجدت بها، لذلك مثلما كان لها شهرتها في مناعتها العسكرية، حاذت أيضا شهرتها في منتجاتها الاقتصادية، ومنها صناعة الأصباغ التي استخدمت في تصنيع الأقمشة.

من ناحية أخرى امتازت صور بميزة أخرى جيدة وهى أن ساحلها كثر فيه السمك، بل أيضا تمت زراعة سهولها وأوديتها بالكروم وأشجار الفاكهة وحقول الحنطة، بالاضافة إلى ما تمتع به ميناؤها من مميزات عديدة جعلها بحق عروس موانئ الساحل الشامي[٩٦].

كما اشتهرت صور بتجمع الأسماك عند ساحل الشام في طريق هجرته مما أدى إلى ظهور نشاط صيد الأسماك، الذي كان يدر دخلاً كبيراً، وكان يدخل في المعاهدات التي كانت تعقد بين المسلمين والصليبيين.

واستمر هذا الوضع التجاري النشط قائماً على هذا النحو، حتى بعد معركة حطين وسقوط المدن الساحلية الشامية في يد صلاح الدين الأيوبي، فاجتمع بصور أهل البلاد التي استردها صلاح الدين بالأمان، حتى حدث في المدينة زحام شديد من كثرة من هاجر إليها، وعندما أراد صلاح الدين فتح صور، لم يستطع لعدة أسباب منها: مناعة أسوارها وحصونها، وكثرة من وجد بها من الصليبيين، فرحل عنها ولم يسقطها [٩٧].

و زادت تلك الحادثة من أهمية صور، وتفوقت بها على عكا، حيث ظلت بأيدي الصليبيين ولم تسقط في أيدي المسلمين، فاستمر الوضع قائما بها كما هو، بل لقد انتقلت إليها كرسي المملكة الصليبية بوصفها حصن قوي، مما زاد من أهميتها.

و لحق بصور تدهور لأن التجار البيازنة في عام ١٢٢٢م / ٦١٩ هـ، دمروا برج التجار الجنويين في عكا، وقامت الحرب التي عرفت باسم حرب القديس ساباس ST.Sabas [٩٨]، بين كل من البيازنة والبنادقة والداوية والتوتونيين والمرسليين من ناحية، والجنويين مدعومين من عناصر الإسبتارية وتجار مدينة أنكون Ancone وكاتالونيا Catalogne من ناحية أخرى[٩٩].

تحولت الأوضاع في الساحل الشامي في القرن الثالث عشر الميلادي/ (السابع الهجرى)، إلي عدة صراعات داخلية وكثيرة امتدت على طول الساحل الشامي، فقد تحالفت البندقية مع منافستها مدينة بيزا ضد عدوتها اللدودة مدينة جنوا، وذلك في سبيل مصلحتها التجارية في مدن الساحل الشامي، مما كان لهذا الصراع أثره السيئ على مسيرة الحركة التجارية.

و تمكن الجنويون – على أثر تلك الحرب – بمساعدة حاكم صور فيليب منتفرت، من طرد البنادقة والبيازنة من صور [١٠٠]، ومن جهة أخرى تحالفت جنوا مع ميشيل باليولوجوس الإمبراطور البيزنطي الذي تمكن من استعادة القسطنطينية عام ١٢٦١م/ ٦٥٩هـ وطرد البنادقة منها [١٠١].

ويرجح أن عداء فيليب للبنادقة، ربما يعود إلى أنه ينحدر من أصول إيطالية تمثل العداء للبنادقة، أو أنه رأى أن نفوذ البنادقة قد زاد في مدينة صور على حساب سلطته، فأراد أن يحد من هذا النفوذ، عن طريق التحالف مع الجنوية ليتمكن من طرد البنادقة خارج مدينة صور.

وتدخلت البابوية لكي تفض هذا الصراع، إلا أن المدن الإيطالية ظلت في تنافسها المستمر، الذي ساهم بشكل كبير في تفكيك أوصال المستعمرات الصليبية في الساحل الشامي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري[١٠٢].

ويلاحظ تغلب المصلحة الخاصة أحيانا على المصلحة العامة، مما كان له أسوأ الأثر على وضع الكيانات الصليبية في الساحل الشامي، فبدلا من أن تمد المدن الإيطالية وغيرها من المدن التجارية الأخرى مساعدتها للصليبيين تنافست فيما بينها

وتعاركت مما أضعف الكيانات الصليبية.

ولم يقتصر الصراع بين البنادقة والجنويين في الجانب البري فقط، بل تعداه إلى صدام بحرى حيث هاجم الأسطول البندقى أسطول جنوا أمام سواحل عكا وذلك فى عام ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ، وتمكن البنادقة على إثره من مهاجمة مواقع الجنوية(١٠٣).

وكان لمثل هذه الحوادث تأثيرها على نشاط حركة التجارة البحرية بين أوربا ومدن الساحل الشامي، وخاصة خوف التجار من أن تتعرض سفنهم التجارية التي تجوب البحار في مناطق مختلفة، من أن يلحق بها الدمار وسلب بضائعهم، على يد السفن الأخرى المغيرة، مما كان يسبب ضياع ثرواتهم التجارية وخسارتهم لأموالهم.

واغتنم المماليك فرصة تلك الصراعات القائمة بين الصليبيين بعضهم مع بعض، وقاد الأشرف خليل بن قلاوون جيشه بعد فتح عكا وتوجه إلى صور حيث كانت تابعة لعكا وعند اقتراب جيشه منها أعلنت التسليم، وذلك فى عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ، وهو نفس عام فتح عكا، وبذلك نظف الأشرف تماماً الساحل الشامى من الصليبيين (١٠٤).

ويلاحظ أن المماليك لم يتركوا فرصة إلا واستغلوها لكى يقوموا باستعادة أملاك المسلمين من أيدي الصليبيين، بل أنهم عملوا على إشعال الصراع فيما بين الصليبيين حتى يسهل عليهم انتزاع الأراضي التي اغتصبوها من قبل ذلك.

وإذا قورن الوضع بين عكا وصور نجد أن مدينة عكا قد تميزت بموقعها المتوسط على الساحل الشامي بين الشمال والجنوب، في حين تميزت صور عن عكا بقوة تحصيناتها واستحكاماتها الطبيعية والصناعية، و وجدت في كل من مينائي عكا وصور عيوب، وإن اختلفت عن بعضهما البعض، إلى جانب ذلك توقف النشاط التجاري في مدينة عكا لفترة أثناء الصراع حولها بين المسلمين والصليبيين في أثناء الحملة الصليبية الثالثة، بينما لم يتوقف النشاط التجاري في مدينة صور، وتفوقت عكا على صور بأن انتقل إليها ملوك بيت المقدس الصليبيين، بعد استرجاع

بيت المقدس على أيدي المسلمين، وبذلك نالت مكانة دينية بجانب مكانتها الاقتصادية.

احتلت مدينة بيروت المركز الثالث في الساحل الشامي، من حيث النشاط التجاري وإقبال التجار الغربيين عليها، فهى مدينة غنية وقوية وكبيرة وازدحمت بالسكان (١٠٥)، وذلك لأن المدن الإيطالية امتلكت قواعد لها هناك، بل ومراسلين من التجار أيضاً (١٠٦)، ففي تلك الفترة العصيبة خلال القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين – السادس والسابع الهجريين، تم الجمع بين فكرة الحرب والتجارة، فقد اعتمدت المدن الأوربية وكذلك الشامية على مهارة تجارها ورأس مالهم وتنظيمهم، وعلى ما تمتعت به الموانىء الشامية من مميزات وبالإضافة إلى مصادر الثروة الطبيعية من زراعة وصناعة (١٠٧).

و لم تترك المدن الإيطالية أمراً من أجل التجارة إلا واهتمت به، فلم ينصب اهتمامهم على التركز فى المدن الكبرى مثل عكا وصور، بل لقد تركزوا فى المدن التي كانت أقل من حيث الشهرة والمكانة، وذلك حتى يستطيعوا الاستفادة من تلك المدن، ولكى تخدم مصالحهم التجارية فقد كان شعارهم " لنكن إيطاليين أولاً ثم لكن مسيحيين ".

وتركزت فى المدن الساحلية أنظمة إسلامية الأركان، ومع تركز المدن الأوربية فيها، فلم يستطيعوا محوها أو تغييرها، فعلى الرغم من أن المدن الإيطالية احتكرت التجارة ومارستها فى موانىء الساحل الشامى، إلا أن قوتهم فى التجارة البرية لم تكن بحجم مثيلاتها لأنها تركزت بأيدي تجار المسلمين (١٠٨).

ويلاحظ أن التجار الغربيين لم يستحدثوا نظماً جديدة فى المدن الساحلية الشامية التى استقروا فيها، بل واجهتهم نظم تجارية قائمة عملوا على الاستفادة منها، بل ونقلوها إلى معاملاتهم التجارية فى القارة الأوربية، وقد تفوق التجار الإيطاليون في التجارة البحرية بسبب قوة أسطولهم، بينما تفوق التجار المسلمون عليهم في التجارة البرية، بسبب سيطرتهم على تجارة الظهير الأسيوي الممتدة من المحيط الهادي شرقا إلى الساحل الشامي غربا.

و كان لمدينة بيروت ميناء صناعي – ليس طبيعياً – وتم إنشاؤه على هيئة نصف قمر، وضع حديه في الأطراف كقرون في شكل برجين كبيرين، يصل بينهما سلسلة حديدية ضخمة لتنظيم حركة الملاحة داخل الميناء (١٠٩)، وتتصل مدينة دمشق بالبحر المتوسط عن طريق هذا الميناء المهم، الذي يبعد عنها بمسيرة يومين، فمياه هذا الميناء هادئة ولذلك تلجأ إليها السفن في معظم أوقات العام (١١٠).

و اشتركت الموانى في الساحل الشامي في سمة واحدة، وهي وجود السلسلة الكبيرة التي توجد في مقدمة أو مدخل الميناء، ويدل ذلك على أن تلك السلسلة لم تكن من استحداثات الصليبيين، بل وجدوها في المدن التي أحتلوها واغتصبوها من أيدي المسلمين، ويتضح لنا أن المسلمين أدركوا أهمية الحركة الملاحية، بل ونظموها تنظيما جيداً.

واستحوذت بيروت على صفة مهمه وهى أنها ميناء دمشق، ومخرج منتجاتها، فهذه الميزة عوضت بيروت عن منافسة أهم مينائين في مملكة بيت المقدس الصليبية والساحل الشامي وهما عكا وصور، اللذان يحتلان مركز الصدارة في شتى النواحي الحضارية (١١١)، الخاصة بالصليبيين في ذلك الوقت، فدمشق هى المستودع الكبير الذي ترد إليه منتجات الشرق كله بكميات هائلة، ومن عدة طرق مختلفة (١١٢).

ويتضح أن الموانى التي وقعت في أيدي الصليبيين، عملوا على تعميرها وتجميلها، وتركوها في أيدي المدن التجارية سواء الإيطالية أو غيرها من المدن الأخرى، فقامت تلك المدن بإرساء قواعدها في الساحل وإنشاء كومنات تجارية تابعة لها في هذه المدن، وأدرك التجار ميزة كل ميناء واختلافه عن الآخر، وحاجة كل ميناء ونوع السلع التي يحتاجها، وطبيعة سكان المدينة نفسها.

وظلت مدينة بيروت بأيدي الصليبيين إلى ثمانينات القرن الثاني عشر الميلادي – السادس هجري، حتى جاء زلزال حطين وانهيار الكيانات الصليبية بالساحل الشامي على يد صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ، فبدأ صلاح الدين في استرداد مدن الساحل الواحدة تلو الأخرى إلى أن جاء دور مدينة بيروت، حيث توجه إليها صلاح الدين بجيشه وفرض عليها حصاراً محكما (١١٣).

وكانت مدينة بيروت منيعة بحصانة قوية، فلما حاصرها صلاح الدين بجيوشه، تحصن الصليبيون وراء أسوارها وحاولوا الدفاع عنها، إلا أن أولئك الصليبيين كانوا من التجار وأصحاب الحرف، ولم تكن معهم قوة عسكرية سواء من الفرسان أو المشاة لتحميهم، كما أنهم لم يكونوا يجيدون فن الحرب، ولهذا سرعان ما استسلموا إلى صلاح الدين في نفس عام الحصار، ودخل صلاح الدين المدينة في ٦ أغسطس ١١٨٧م / ٢٧ جمادى الأولى ٥٨٣ هـ (١١٤).

ويلاحظ أن بعض المدن الساحلية في بلاد الشام، والتي استولى عليها الصليبيون، تتركز فيها السلطة العسكرية والتجارية معا مثل عكا وصور، وذلك لمكانتهما في الساحل الشامي، والبعض الآخر ومنهم مدينة بيروت، التي كانت السلطة العليا فيها بأيدي التجار، ولم يكونوا من ذوي الخبرة العسكرية، وبالتالي سقطت سريعا بأيدي الجيوش الإسلامية.

وبرز موقع مدينة بيروت في الشمال وقربها من عكا، حيث استخدمها صلاح الدين الأيوبي كقاعدة لإرسال المؤن والأسلحة إلى القوات المحاصرة داخل عكا من جانب الصليبيين، وقد نجحت خطته فقام بتجهيز سفن أخرى لإرسال المدد إلى تلك المدن حتى سقطت بأيدي الصليبيين (١١٥).

ويرجح أن مدينة بيروت عندما استعادها المسلمون لم يوقفوا نشاطها التجاري، ولم تفقد مركزها المزدهر بل ظلت تمارس التجارة والدليل على ذلك هو السفن التي أرسلها صلاح الدين محملة بالمؤن والأمتعة، فزاول التجار المسلمون التجارة في تلك المدينة وحافظوا عليها.

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، حدث نزاع في البيت الأيوبي وتشاجر أبناء صلاح الدين وعمهم، واستغل الصليبيون تلك النزاعات وتقدموا لمحاصرة بيروت، ولم تصمد حاميتها لعدم وجود الدعم للصمود أمام الجيوش الصليبية، فتمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيروت فعلا في أكتوبر سنة ١١٩٧م / ٥٩٤هـ، وتوجد أهمية كبرى على وقوع بيروت في قبضة الصليبيين مرة أخرى، فإن السيطرة عليها مكنت الصليبيين من إحكام إشرافهم على شواطئ الساحل الشامي، وبخاصة فيما بين طرابلس وعكا (١١٦).

وقد حدث تحول في أوضاع كل من المسلمين والصليبيين على السواء، فقد انشغل المسلمون بخلافاتهم الداخلية وضعفت قوتهم، ومن ناحية أخرى حاول الصليبيون استعادة ما فقدوه من مدن الساحل المهمة وانتزاعها من أيدي المسلمين.

وهكذا عادت بيروت مرة أخرى إلى السيادة الصليبية، غير أن الصليبيين لم يلتزموا بالسلام مع جيرانهم المسلمين بل قامت محاولات عديدة للقيام بأعمال القرصنة ضد المراكب التجارية الإسلامية، مما جر عليها حرب المسلمين، فسارع حكامها بعقد صلح مع الظاهر بيبرس، لأنهم غدروا بمركب فيه جماعة من التجار كانوا متوجهين إلي قبرص، فطالبهم بيبرس بمال التجار، فالتزموا بذلك وأطلقوا سراح التجار [١١٧].

ومال الصليبيون في مدينة بيروت إلى النشاط التجاري بصورة كبيرة، مما أدى إلى طمعهم في السفن التجارية الإسلامية،التي مثلت نمو النشاط التجاري الإسلامي مرة أخرى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي- السابع الهجري، وذلك نتيجة تدهور الأوضاع الصليبية مع ظهور قوة المماليك التي عملت على طرد الصليبيين من المراكز التجارية بالساحل الشامي.

وقد قام سلاطين المماليك بنشاط كبير في الحرب ضد كل من المغول والصليبيين، وبالأخص الصليبيين فقاموا بإسقاط المدن والقلاع الساحلية التي وقفت في طريق توسعهم، ومنهم السلطان منصور قلاوون الذي قام بمهاجمة الساحل الشامي واستعاد بعض المدن الساحلية، وأهمها مدينة طرابلس في الشمال، والتي على إثرها سقطت مدينة بيروت، التي كانت تابعة لها، وذلك في عام ١٢٨٩م / ٦٨٨ هـ [١١٨].

ويتضح أن المراكز الصليبية التي أنشئت في الساحل الشامي، وجدت هناك مراكز ثانوية أخرى تابعة لها، بل وتستمد قوتها من تلك المراكز، فإذا حدثت هزات لتلك المراكز، أصاب المدن التابعة لها ذلك، وهذا ما حدث مع مدينة بيروت التي كانت تابعة لطرابلس، فعندما سقطت بأيدي قلاوون لم تصمد بدورها وقتاً طويلاً .

وتلت مدينة طرابلس فى حركة التجارة بيروت بالنسبة لتجارة الساحل الشامى

الخارجية والداخلية، فكانت طرابلس مخرجاً لتجارة منطقة حلب [١١٩]، فهذه المدينة اكتسبت شهرة كبيرة، وقد وقع معظم أجزاء المدينة داخل البحر، وهى مدينة مزدحمة سكانياً يقطنها أجناس مختلفة من يونانيين ولاتين وأرمن وموارنة ونساطرة وجماعات أخرى كثيرة [١٢٠].

ومن الملاحظ أن الذي دل على قوة ومكانة المدن الساحلية الشامية الاقتصادية، هو كثرة من كان يقطنها من المسلمين سكانها الأصليين، بالإضافة إلى تركز الكثير من العناصر الصليبية فيها، نتيجة لمناعتها الطبيعية وموقعها الجغرافي الذي كان يجعلها في مكانة اقتصادية متميزة.

وصفت طرابلس بأنها مدينة ذات نشاط حرفي كبير [١٢١]، والعديد من السماسرة ينشطون بها، وامتازت الأراضي المحيطة بطرابلس بالخصوبة، حيث انتشرت بها العديد من الفاكهة مثل مزارع العنب وبساتين الزيتون وأشجار التين وقصب السكر [١٢٢]، وأيضا لوقوع طرابلس في شمال الساحل الشامي، فقد مثلت حلب نقطة إلتقاء للطرق التجارية القادمة من العراق واتصلت بدمشق عبر حماة وحمص، كما امتدت مجموعة من الطرق من أنطاكية إلى حلب ودمشق عبر شيزر وكفر طاب، وبذلك وفرت هذه الطرق همزة الوصل بين المدن الداخلية مثل حلب وشيزر ودمشق وبين موانئ بلاد الشام مثل طرابلس وبيروت وصور [١٢٣].

وتمتعت مدينة طرابلس بعدة مميزات، منها: وقوعها في شمال الساحل الشامي حيث وقعت في نهاية الطرق التجارية القادمة من شمال أوربا وآسيا إلى سواحل الشام، وأيضا نهاية الطرق القادمة من وسط آسيا إلى الغرب لسواحل الشام مما أعطاها شهرة كبيرة، فتوافد التجار عليها ونشطت بها الحركة التجارية.

واكتظت مدينة طرابلس بالمخازن التي ملئت بالبضائع الثمينة، وكان ميناؤها يجذب إليه السفن من كل البلاد [١٢٤]، كما كانت المدينة عامرة بالأسواق والفنادق والمصانع العاملة [١٢٥]، وبجانب عناصر السكان الأصليين من يهود ومسلمين، فقد مارسوا التجارة والصناعة بنشاط كبير [١٢٦]، ولذلك كانت أسعار السلع بها مرتفعة مثل الخبز والغلال [١٢٧]، واستقبل ميناء طرابلس السفن التجارية الإيطالية التي كانت تقوم برحلتين سنويا إلى الموانئ الشامية [١٢٨].

و تميز ميناء طرابلس باستقباله للسفن التجارية الأوربية القادمة للساحل الشامي في شكل قوافل، وذلك خلال الرحلات التي تقوم بها تلك السفن على مدار العام، مما يوضح أن ميناء طرابلس صالح لرسو السفن به لفترات طويلة أثناء العام.

بالإضافة إلى ذلك تميزت مدينة طرابلس بوصفها مدينة صناعية، بصناعة الورق الجيد الذي فاق الورق السمرقندي الشهير، حيث كان يتم تصنيعه من قصب السكر (١٢٩)، ولذلك سارع التجار الإيطاليون بالتمركز فيها، ومع مجيئ القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، حدث نوعان من التغيير، كانا لهما نتائج بعيدة المدى، الأول: وهو دخول تجار من فرنسا وأسبانيا ودول أوربية أخرى لممارسة النشاط التجاري في مدن الساحل الشامي، ولذلك وجدت جاليات مارسيليه ومدن أخرى في طرابلس، أما الثاني: وهو توسع هؤلاء التجار في إقامة البيوت التجارية في المدن الداخلية من أجل النشاط التجاري (١٣٠).

و أصبحت مدينة طرابلس ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، مركزا لتجمع التجار الأوربيين الذين حاولوا التوغل في الظهير الشامي. ولكن حلت محنة بمدينة طرابلس، وذلك نتيجة الزلزال الذي وقع في منطقة بلاد الشام عام ١١٧٠م / ٥٦٥ هـ، فقد كان حجم التدمير الذي حل بها كبيرا، وقد جاءها على نحو مفاجئ، ولذلك حدث تغير في أوضاع المدينة بعد هذا الزلزال الذي ضربها، فمات عدد كبير من سكانها، وتحولت مبانيها ومساكنها إلى أنقاض وأطلال (١٣١).

ولا ريب في أن طرابلس قد لحقها ضرر اقتصادي شديد، نتيجة هذا الزلزال، فنظرا لتوافد التجار عليها و استمرار عملية البيع والشراء، وبالتالي سيكون هناك زحام شديد، ومع الزلزال فإن الأضرار سوف تكون كبيرة وخاصة في الجانب التجاري.

وصاحبت مظاهر الطبيعة عوامل سياسية أدت إلى تدهور أوضاع الإمارة، وذلك في القرن الثالث عشر الميلادي – السابع الهجري، حيث تجددت المنازعات مرة أخرى بين بوهيموند الخامس أمير أنطاكية وطرابلس، وملك أرمنيا الصغرى

هيثوم الأول، وذلك بسبب وراثة العرش، هذا إلى جانب أن الداوية ظلوا في نزاع دائم مع أرمينية الصغرى حول حصن بغراس، الذي ظل الأرمن يطمعون في الاستيلاء عليه(١٣٢).

واستمرت المنازعات بين الصليبيين فى طرابلس ومملكة أرمينيا الصغرى، فى الوقت التى ظهرت قوة جديدة على الساحة الإسلامية وهى قوة المماليك التى أخذت تهدم الحصون والإمارات الصليبية، ومنها خروج السلطان قلاوون على رأس جيش ضخم فرض حصاراً على طرابلس، ثم لم يلبث أن استولى عليها بعد أربعة وثلاثين يوماً، وانتهى الحصار بتدمير تحصينات المدينة التى كان سورها عريضاً وقوياً وذلك فى عام ١٢٨٩م /٦٨٨هـ (١٣٣).

ويلاحظ الباحث أن الصليبيين ابتداء من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادي، دخلوا في منازعات داخلية فيما بينهم، بل إن الإمارات الصليبية نفسها قامت بها منازعات داخلية أدت إلى ضعفها على جميع المستويات وأبرزها الجانب السياسي والاقتصادي.

وشهد القرن الثالث عشر الميلادي /السابع الهجري غياب مدن مثل عسقلان وخرطوس وجبلة، وانحطاط مدن أخرى مثل يافا واللاذقية وقيصرية وصيدا، بل امتد هذا الانحطاط إلى مدن الظهير مثل مدينة حلب ودمشق، وذلك نتيجة لاختفاء حكام تلك المدن من الأيوبيين، وسبب آخر وهو تغيير الطريق الناتج عن اكتساح المغول لوسط وغرب أسيا (١٣٤).

ومن المرجح أنه كان هناك ارتباط شديد الأهمية بين مدن ومراكز التجارة في الظهير الشامي، وبين المراكز التجارية في الساحل، وظهر ذلك واضحا أثناء اضطراب الأوضاع في المدن الداخلية ونتيجة لتدميرها على أيدي الجيوش المغولية، فساءت الأوضاع في المراكز الساحلية.

وامتدت على طول الساحل الشامي الكثير من المدن الساحلية، غير أن بعضها لم تزد أهميته عن كونه ميناء للصيد مثل مدينة أرسوف، التي تم مزاولة حرفة صيد الأسماك لتجمعه بالقرب منها، ومدن أخرى ظلت على الرغم من ذلك

تحتفظ بأهميتها الإستراتيجية والاقتصادية، وتحملت الصعوبات التي واجهتها مثل مدينتي عكا وصور [١٣٥]، ومع سقوط تلك المدن الساحلية تعطلت حركة التجارة وفقدت تلك المدن أهميتها الكبيرة [١٣٦].

وتجدر الإشارة إلى أن المدن الساحلية الشامية مارست التجارة، غير أن نسبة هذه الحركة اختلفت من مدينة لأخرى، فنالت بعض المدن أهمية وأصبحت مركزاً تجاريا، ولم تكن المدن الأخرى على ذات المستوى من الأهمية التجارية.

وأدى استقرار الصليبيين في الساحل الشامي، إلى قدوم الكثير من عناصر وأجناس مختلفة من أنحاء أوربا، وكانت لهم عاداتهم وتقاليدهم المختلفة، غير أن تلك العناصر كانت أكثر فائدة للساحل الشامي من حيث ممارسة التجارة والزراعة والأعمال الأخرى المفيدة [١٣٧]، لذلك حدث اتصال بين تجار أوربا الغربية، بل إنهم حضروا بأنفسهم إلى الساحل الشامي، لأن التجارة كانت تمثل أهمية اقتصادية واجتماعية كبيرة [١٣٨].

ومن الملاحظ أن الوضع فى الساحل كان متناقضاً فى كثير من جوانبه، فتعددت عناصر الصليبيين واختلفت أجناسهم، إلا أنه اتفقت مصلحتهم على شيء مهم وهو التجارة التى أعطتهم الكثير من الأرباح التجارية.

أثر الاستيطان الصليبي على السلع التجارية:

أما فيما يتصل بالسلع التجارية ؛ فقد احتكرت المدن الأوربية للتجارة الكاملة من مضيق البسفور مروراً بالساحل الشامي ومنه إلى غرب البحر المتوسط إلى مضيق جبل طارق وشمال غرب أوربا [١٣٩]، فبعد احتلال الصليبيين للساحل الشامى، أصبح مخرجا للسلع التجارية لكل من سوريا وفلسطين، بالإضافة إلى جزء كبير من تجارة مصر حملت على سفن أوربية [١٤٠].

ونستنتج من ذلك أن سيطرة المسلمين البحرية على سواحل الشام انتهت مع مقدم الصليبيين واحتلالهم لمدن الساحل الشامي، بالإضافة إلى ذلك فقدانهم لدور الوساطة التجارية التي قاموا بها بين شرق البحر المتوسط وغربه.

ودخلت بعض السلع المهمة في دائرة السلع الإستراتيجية، والتي بسببها نشأت العلاقات بين الأمم المختلفة، بل وقامت من أجلها الحروب، ولها أيضاً يرجع الفضل في إيجاد الاتصال بين الشرق والغرب بصورة مستمرة، وكانت التوابل أهم تلك السلع حيث كانت القوافل المحملة بها تسلك عدة طرق صارت فيما بعد من أهم شرايين الاتصال في آسيا وأفريقيا (١٤١).

ويلاحظ هنا أن السلعة الواحدة كان لها أكثر من استخدام، وتعددت أغـراض الشعوب فيها، ولم تقتصر على فئة معينة من أفراد الشعب بل اسـتعملتها طبقـات الشعب المختلفة.

لقد مثلت التوابل أهمية بالغة للغرب الأوروبـي فـي ذلـك الوقـت، حيـث استخدموها في حفظ الطعام من الفساد، بالإضافة إلى استخدامها في صناعة العقاقير الطبية، التي ساعدت على شفاء الكثير من الأمراض التي كانت منتشرة في أوربا ، واستعملته بعض الشعوب من أجل القضاء على السمنة، ودخلت أيضاً فـي حفـظ اللحوم والقضاء على رائحتها، وحفظها طازجة لأطول فترة ممكنة (١٤٢).

ولعب الفلفل وهو من التوابل دوراً مهما لاستخدامه ضمن المقويات وفـاتح للشهية(١٤٣)، كما دخلت التوابل فى صناعة النبيذ والعقاقير الطبية، ونتيجـة لهـذا الاستخدام ارتفعت أسعارها وازداد الطلب عليهـا وزادت قيمتهـا الـشرائية (١٤٤)، وكانت قوافل التوابل والبخور تأتى من مركزها فى الهند وتحمل بحراً إلى جزيرة هرمز، ومن هناك يتوجه الجزء الأكبر من تلك الحمولة وترسل بحراً إلى موانيء ظفار ثم إلى عدن، ومنها إلى طريق البحر الأحمر ومن هناك إلى مـصر وبـلاد الشام(١٤٥).

ولقد أدى مرور السفن التجارية المحملة بالتوابل عبر البحر الأحمـر حتـى تصل إلى موانى البحر المتوسط، إلى نشاط وازدهار موانى كثيرة في البحر الأحمر مثل ميناء عدن في اليمن، وميناء عيذاب على البحر الأحمر شمال شرق حلايـب، وصولا إلى ميناء أيلة عند خليج العقبة، حيث أصبحت تلك القوافل التجارية البحرية مصدر رزق للكثير من سكان تلك المدن.

ووصلت تلك القوافل إلى مختلف مدن الساحل حتى ميناء السويدية فى الشمال التابع لإمارة أنطاكية والتى كانت تتجمع بها القوافل التجارية ومنهـا إلـى ميناء السويدية حيث تحمل إلى السفن الأوربية [١٤٦]، وترتب على مواعيد وصول القوافل تحديد مواعيد رحلات الأساطيل التجارية الإيطالية إلـى الساحل الشامي [١٤٧]، ونتيجة لما تحمله تلك السفن التجارية من سلع قيمة، كانت تحملها من مدن الساحل الشامي، أو تأتي بها إليه، فقد كانت تصاحبها سفن حربية خاصة، وهى سفن تم تجهيزها لأغراض الدفاع عن السفن التجارية، فكانت سفناً سريعة الحركة خفيفة الوزن [١٤٨]، وقد فضل التجار هذه الوسيلة لنقل بضائعهم التجارية المسافرة إلـى مدن الساحل الشامي، لأنها تكفل لهم أمنا كبيرا من غارات القراصنة[١٤٩].

ونالت التوابل شهرة كبيرة فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى وعرف تجارها وتجارتها بالكارمية[١٥٠]، ونظراً لأهمية تجارة الكارم فى تدعيم الاقتصاد الإسلامى، عنى صلاح الدين وخلفاؤه من بعده، بتنظيم شئونها فخصصوا لخدمتها موظفاً كبيراً، هو ناظر البهار والكارم مهمته رعاية مصالح الكارمية وتجارتهم ما بين البحر الأحمر والشام ومصر [١٥١].

وزادت أهمية تجارة الكارم فى القرن الثالث عشر الميلادى/السابع الهجري، حيث اهتم سلاطين المماليك بها، ولم يلبثوا أن تاجروا بأنفسهم واحتكروا هذا النوع من التجارة بعد أن انتزعوها من التجار الكارمية، وغالوا في احتكارها وخاصة في السلع النادرة، وأدى هذا الاحتكار إلى ارتفاع أسعارها خاصة في أوربا إلى أربعة وخمسة أضعاف عن سعرها في الهند [١٥٢].

و حققت تجارة الكارم ثروات وأرباحاً طائلة، لذا عمل سلاطين المماليك على الاهتمام بتلك التجارة وتشجيعها، ونظرا لمكاسبها الكبيرة قاموا بالتجارة فيها بأنفسهم حتى يقوموا بتحقيق ثروات خاصة بهم.

لقد خصصت المدن التجارية سفناً خاصة لنقل التوابل والسلع الأخرى المعدة للتصدير إلى أوربا، وكانت تسبق القوافل الموسمية وهى سفينة تعرف بالكوكا Coca، وكانت تنتظر في الموانئ لحين وصول القافلة البحرية، حيث يسمح لها

بفترة انتظار تشحن خلالها مختلف أنواع السلع بحيث تترك على ظهرها مساحة كافية فارغة لنقل ما يفيض من التوابل والسلع بعد شحن القافلة الموسمية ورحيلها من الميناء [١٥٣].

ومن المرجح أن التوابل كانت لها أهمية كبيرة عند التجار الإيطاليين، حتى أنهم خصصوا سفناً ذات تكوين خاص، لكي يتمكنوا من نقلها بطرق وأوعية معينة، حتى يتم حفظها سليمة لكي تصل إلى الغرب الأوربي [١٥٤].

وبجانب تجارة التوابل، دخلت تجارة الأعشاب إلى دائرة المنافسة وظهر منها عدة أعشاب مهمة، وهي: العنبر حيث كان النوع الجيد منه ما كان يجلب من عمان ويصدر خارجا وكان خفيفا وأبيض دهنياً [١٥٥]، ونبات آخر يسمى مرياقلون وهي زهرات نافعة تستخدم للعلاج من السموم [١٥٦]، ونوع آخر يسمى حزنبل، وقد خصص لإبطال فعل سم العقارب وكان يجلب من طرسوس [١٥٧]، إلى جانب نبات يدعى اللبلاب ويزرع في أنطاكية وخصص لتقوية اللثة، واستعمل كمسهل بشكل جيد في أوربا، وحمله البنادقة والفلورنسيين إلى إنجلترا [١٥٨].

و لم تستأثر تجارة التوابل بحجم التجارة كلها، بل دخلت الأعشاب دائرة التجارة الدولية وذلك لإستخدامها في صنع الطعام والعلاج الطبي، لذلك لاقت إقبالاً كبيراً على شرائها خاصة في أوربا.

كما دخلت تجارة البخور إلى دائرة التجارة الدولية والتصدير عن طريق الساحل الشامي، وأشهر أنواعه العود الهندي وأجل صفاته الرزانة واللون المائل إلى السواد ورائحته على النار تشبه رائحة الورد [١٥٩].

ولعبت تلك السلع دورا هاما من أجل الطقوس الدينية والتجارة الخارجية مثل آلاف الطوائف المسيحية التي كانت تحتاج للخمور من أجل القداس، والزيت من أجل التقديس والبخور الذي خصص من أجل الاحتفال الديني [١٦٠]، وقد تخصصت مدينة البندقية في البضائع التي قل وزنها وارتفعت قيمتها، لذلك صممت من أجل ذلك سفن بها حاويات خاصة لتحمل تلك البضائع بشكل حذر وأوعية طويلة وضيقة لحفظ تلك المواد [١٦١].

ومن المؤكد أن قدوم الحجاج عن طريق السفن للساحل الشامي، وزيارتهم للأماكن المقدسة واستعمالهم للبخور والأعشاب في طقوسهم الدينية أدى إلى نشاط في حركة تجارة البخور والأعشاب وازدهار ليس فقط في بيت المقدس، بل في المدن الساحلية الشامية فيما عرفت باسم تجارة الحج.

واهتمت الإمارات والدول الصليبية على امتداد الساحل الشامي بهذه التجارة، بسبب ما يجني من أرباح فرضت على القوافل التي تمر بأراضيها وتذهب إلى دمشق أو تأتي منها، واهتم التجار الأوربيون بشراء نبات الرواند والمسك والفلفل والقرفة وغيرها من منتجات المشرق التي تأتيهم برا عبر القوافل أو بحرا عبر الخليج العربي (١٦٢).

ولأهمية هذه التجارة قام التجار باتخاذ الاحتياطات اللازمة من أجل المحافظة على هذه السلع، فقد حرصوا على أن يطرحوا أغطية سميكة مقاومة للماء لحمايتها من الأمطار، وكانوا يهتمون بحفظ المسك من الماء والهواء بنوع من التغليف، بأن تشد أوعية حفظه، ثم تلبس بالخرق المشمعة، وكذلك كان يحتاط على العنبر وعدم تعريضه للنار، كذلك كان يوضع الكافور في إناء زجاج أو صيني داخله أملس(١٦٣).

ونستنتج من ذلك أن تجارة التوابل كانت مهمة بالنسبة للأوربيين واستخداماتها المتعددة، مما جعل التجار المسلمين يحافظون عليها بشتى الطرق أثناء نقلها من منبتها في الهند إلى بلاد الشام ومنها إلى قارة أوربا.

وجاءت تجارة الحرير مصاحبة لتجارة التوابل، واهتم بها التجار الأوربيون، فقد جاء الحرير من الصين عن طريق المحيط الهندي والخليج العربي إلى مدينة بغداد، ومنها إلى حلب حيث عرفت بسوق الحرير (١٦٤)، بالإضافة إلى نمو القطن بها مما أعطاها أهمية كبيرة (١٦٥)، وأخذ الأوربيون الحرير من الساحل الشامي إلى أوربا حيث عبروا به ممرات الألب حتى يصلوا إلى أسواق شامبني، ومنها يرسل هذا الحرير إلى شمال أوربا وفرنسا (١٦٦).

وظهر نوع آخر من الحرير أنتج في إيران، ولقى إقبالا شديدا في

المستعمرات الصليبية (١٦٧)، بل إن الحرير الخام (١٦٨)، تم إنتاجه في مدن الساحل الشامي نفسها، ومنها مدينة طرابلس الذي تم إنتاج الحرير على مقربة منها، حيث كثر بها وجود صناع ونساجي الحرير (١٦٩)، وقد تخصصت عدة مدن في توزيع الحرير، حيث يخرج من دمشق وتتشعب القوافل ثلاث شعب، واحدة إلى بيروت والثانية إلى صور والثالثة إلى أنطاكية (١٧٠)، وبجانب هذا النوع من الحرير الصيني والفارسي كان لبلاد الشام منتجاتها الخاصة من القطن والحرير، واشتهرت بذلك مدينة صور بمنتجاتها الشفافة (١٧١).

ومن الملاحظ أن المدن الشامية سواء كانت في الظهير أو الساحل الشامي، لم تكتف بدور الوسيط التجاري في نقل أو توزيع البضائع، بل قامت بتقديم منتجات خاصة بها نالت شهرة كبيرة في قارة أوربا.

وبالمقارنة بين تجارة التوابل وتجارة الحرير، نجد أن التوابل كانت أكثر انتشاراً من تجارة الحرير، وذلك لأن التوابل دخلت في صناعة الطعام وتحضير الأدويةكما أسلفنا، وأقبل عليها الناس من الطبقات المختلفة، وبذلك دخلت ضمن دائرة الاستعمال اليومي، أما الحرير فعلى الرغم من أهميته في حركة التجارة، وما يحققه من أرباح مرتفعة، غير أن استخدامه اقتصر على طبقة معينة وهى طبقة الأثرياء، نظراً لارتفاع أسعاره، والتي لم تقدر عليه الطبقات الدنيا ولأنه عد من مظاهر الترف.

كما تركزت في مدينة أنطاكية صناعة المنسوجات المطرزة بالفضة والذهب، بالإضافة إلى ذلك عباءات كهنوتية من القماش الأحمر عليها رسومات من الطيور والحيوانات بألوان خضراء صنعت من الذهب (١٧٢)، وراجت في مدينة طبرية صناعة الحصير المنسوب إليها، وقد أقبل عليه المسلمون في المشرق والمغرب وبخاصة حصير الصلاة، والتي بلغ ثمن الواحدة منها في بعض الأحيان خمسة دنانير ذهبية (١٧٣).

ولم تقتصر المصنوعات الشامية على ذلك، بل دخلت صناعة الملابس من القطيفة، والتي اشتهرت بها طرابلس وطرسوس، وكان يصنع من أربعة مصادر وهى (صوف الجمال – شعر الماعز – صوف الغنم – الحرير) (١٧٤)، وصدرت

المواد الخام من مواطن إنتاجها في الظهير مثل القطن الذي كان يزرع في مدينة حلب، ويؤخذ مباشرة إلى مدينة سبتة في بلاد المغرب [١٧٥]، وإلى إيطاليا حيث اعتبر المادة الأولية للصناعات المزدهرة في لومبارديا [١٧٦].

ومن الملاحظ أن المدن التجارية الإيطالية، لم تكتف بشراء السلع المصنعة فقط مثل الأقمشة والمنسوجات، بل عملت على استيراد موادها الخام الأولية، ونقلها إلى مدنهم من أجل تصنيعها وبيعها من ناحية، ومن أجل تشغيل العمالة لديها من ناحية أخرى.

وحقق الكتان شهرة كبيرة وخاصة الذي يزرع في مدينة نابلس، والذي عد كتانها من بين الكتان الأكثر طلبا عليه في أسواق القدس وغيرها من الأماكن[١٧٧]، وقد كانت هذه البضائع ترفيهية تطلب لحساب القوى الغنية والطبقات العليا مثل الأمراء والوجهاء والزعماء والإقطاعيين [١٧٨].

وقام التجار الروس والمغوليون بقطع المسافات الشاسعة وأحضروا معهم السناجب والفراء الثمين [١٧٩]، وكانت إمبراطورية أرمينا الصغرى تمد المستعمرات اللاتينية في الساحل الشامي بالفرو والجلود، وعدت مدينة اللاذقية أكبر مخزن لهذا النوع من البضائع، والتي تصل إليها من شمالاً بلاد الروس ومن أسيا الوسطى بطرق مختلفة، حيث كان هذا النوع شائع الاستخدام في العصور الوسطى وخاصة أوربا[١٨٠].

وكان لطقس أوربا في الشتاء له تأثيره على نوع السلع التي دخلت دائرة التجارة، فلشدة البرودة التى شهدتها أوربا تهافتوا علىَ طلب الفرو القادم من آسيا حتى يكون من عناصر الدفء، وخاصة عند طبقة النبلاء والإقطاعيين.

وكان لمادة الشب Olum أهميتها في دائرة تصدير السلع من الساحل الشامي إلى مختلف المدن الأخرى، وقد أدرك البنادقة قيمة تلك السلعة، فاحتكروا تجارتها من المسلمين، ومنهم تاجران كبيران أحدهما يدعى نيكولاس من مدينة سانتو Nicholas Santo Siro، والأخر وهو شقيقه ويدعى بونيفاس من موليندينو Bonilace Of Molendino، حيث احتكروا تجارة الشب، وفرضوا على سلطان

المماليك عدم بيع هذا المنتج لغيرهم (١٨١).

وكان من بين الصناعات التى ازدهرت ودخلت دائرة التصدير، صناعة المجوهرات فعندما استولى الصليبيون على بيت المقدس وجدوها تحتوي كميات من الذهب والفضة سوى المجوهرات (١٨٢)، فبلغت هذه الصناعة زمن الحروب الصليبية درباً بعيداً من الإتقان والإحكام بحيث كان تجار الصليبيين يقومون بشرائها ويحملونها إلى أوربا (١٨٣)، بل اشتهرت مدينة نابلس بصنع عجول ذهبية تهافت عليها الحجاج (١٨٤).

وعن طريق المقارنة بين المجوهرات والشب، نجد أن المجوهرات كانت تصنع بالطلب ولطبقة محددة وهى طبقة الأثرياء والأمراء، والتي اعتبروها من مظاهر قوتهم وترفهم. أما الشب فقد دخل في العديد من الاستخدامات مثل صناعة الأدوية، وحفظ الأطعمة وغيرها من الصناعات الأخرى، والتي أدت إلى انتشارها أكثر من المجوهرات، بل وبثمن أقل من المجوهرات.

وطلب كثير من نبلاء الصليبيين من تجار الجواهر من أبناء بلاد الشام، أن يصنعوا لهم ما يحتاجون إليه من حلي، وآنية كنسية عديدة كانت ثمينة بما رصعت به من ذهب وفضة (١٨٥)، وقد انصبت جماعات غنية من التجار على استيراد تلك المجوهرات نظراً لقيمتها (١٨٦)، واهتم تجار المسلمين بالأحجار الكريمة التي دخلت في تلك الصناعة ومنها المرجان الذي كان مرتفع الثمن ومتغيراً فى الشرق عن الغرب (١٨٧).

ويتضح لنا هنا مظاهر التأثر الصليبي بحياة المسلمين من الترف الذي عاينوه فى الشرق المسلم وذلك من خلال المجوهرات التي كان يرتديها نساء المسلمين وتأثر نساء الصليبيين بهم، مما أدى إلى تزايد الطلب على شراء الأحجار الكريمة فى الشرق والمستعمرات الصليبية وإرسالها إلى الغرب الأوربى.

وعرف الصليبيون صناعات متقدمة لم تكن مألوفة لديهم في أوربا، ومنها صناعة الورق الذي اشتهرت طرابلس بصناعته منذ العصر العباسي، واستمرت تلك الصناعة حتى بعد احتلال الصليبيين لها، وعرف الورق الطرابلسي بجودته

ودخل في منافسة قوية مع [١٨٨]، الورق الدمشقي والحلبي [١٨٩].

و لم يكن الورق مألوفا في أوربا في ذلك الوقت، الأندلس الإسلامية ، لذلك عندما استعمر الصليبيون منطقة الساحل الشامي، وجدوا الورق ينتج ويستخدم بوفرة، فآثر الصليبيون نقله إلى أوربا حتى يتم استخدامه هناك، بدلا من استخدامهم للجلود وورق البردي الباهظ الثمن في عملية التدوين، سواء في المراسلات الرسمية أو في الاستخدامات الأخرى.

ولم يكتف الصليبيون بمجرد شراء السلع وتصديرها لأوربا، بل اتجهوا إلى الزراعة داخل مستعمراتهم حيث استفادوا من الأمطار في زراعة الأراضي[١٩٠]، وقد استفاد الصليبيون من طرق المسلمين الزراعية مقارنة بأساليبهم [١٩١]، لذلك نجد سكان الضياع من المسلمين [١٩٢] والمدن الرئيسة بأيدي الصليبين [١٩٣]، وقد ترتب على النشاط الزراعي [١٩٤] للصليبيين قيام صناعات متعددة [١٩٥].

و عمل الصليبيون على استخدام الفلاحين المسلمين في زراعة الأراضي التي احتلوها، وذلك لخبرة الفلاحين بطبيعة الأرض الزراعية التي عاشوا عليها لزمن طويل، وأيضا لمعرفتهم بأساليب الري السليمة لتلك الأراضي.

ومن أهم الصناعات التي قامت على المنتجات الزراعية هى صناعة النبيذ، ومن أجلها توسع الصليبيون في زراعة أشجار الكروم للإفادة منه في صناعة النبيذ الذي تميز بجودته، وأشهره النبيذ البيروتي، وقد دخل هذا النبيذ في الشعائر الدينية[١٩٦]، ومن أجل ذلك أقام الأوربيون منشآت لاستغلال الأراضي بزراعة الحقول وتأجيره للقادمين الجدد من أوربا [١٩٧].

و كانت الأراضي الساحلية خصبة، ولم تستغل لفترات طويلة، فكانت مثل الأراضي البكر التي تنتج إنتاجاً غزيراً، لذلك وصفها الرحالة بالخصوبة الشديدة، وكثرة مزروعاتها التي أتقنها المستوطنون من الصليبين، وخاصة في زراعة الكروم الذي دخل في صناعة النبيذ، حيث أقبل عليه الحجاج المسيحيون من أجل استخدامه في صلواتهم.

ومن المنتجات الزراعية التي لاقت إقبالا في زراعتها أو تصنيعها، قصب

السكر الذي وجده الصليبيون منتشرا في الأراضي الزراعية على طول الطريق الساحلي، وقد نقله الصليبيون وطرق زراعته إلى أوربا [١٩٨]، وحرص الصليبيون على تصنيعه في مدن الساحل مثل صور وعكا وبيروت [١٩٩].

وشهد قصب السكر إقبالاً كبيراً عند الصليبيين، وخاصة أثناء فترة الحملة الصليبية الأولى، حيث وجدوه ينتشر بكثرة على امتداد الطريق الساحلي من أنطاكية وحتى بيت المقدس، فاستحسنوه وقاموا بتعلم زراعته، بل وتصديره إلى أوربا.

وكانت الزراعة مصدراً مهماً لدى الصليبيين، فلجأ الصليبيون إلى انتزاع مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية وتوزيعها على كبار الأمراء والفرسان ورجال الدين حتى يقوموا بزراعتها [٢٠٠]، ولم تترك الأراضي على حالها، فقد أدخل الصليبيون تطورا في تنظيم تلك الأراضي، حيث قاموا بتقسيمها إلى وحدات محروثة عرفت كل واحدة باسم كاريوكا Carruca أو كاريوكات Carrucate[٢٠١] وهى تساوي أربعة آلاف متر مربع [٢٠٢].

وشغلت رجال الدين – الذين من المفترض انشغالهم بالأمور الدينية – أمور أخرى دنيوية مثل الزراعة والتجارة، ونافسوا بذلك رجال التجارة رغبة منهم في الحصول على الأموال التي سعى وراءها الغرب الأوربي حينذاك.

ومع تزايد عدد القادمين من أوربا في بعض الاحيان إلى المستعمرات الصليبية أدى ذلك إلى التوسع في زراعة المحاصيل التي دخلت في الاستخدام اليومي وانتقلت أيضا إلى أوربا ومنها [٢٠٣]، محصول الزيتون الذي انتشر في مناطق كثيرة من بلاد الشام ومنها مدينة نابلس وهى تعد من أكثر مدن بلاد الشام إنتاجا لمحصول الزيتون [٢٠٤].

وقامت على محصول الزيتون عدة صناعات منها صناعة الزيت الذي يستخرج من الزيتون وصناعة الصابون ذي الجودة العالية [٢٠٥]، وانتشرت تجارة الزيت الذي كثر إنتاجه، وأشهر أنواعه زيت ركابي وقد صدر هذا الزيت إلى العراق حيث كثر استهلاكه [٢٠٦]، وقد شاركت مدن الظهير في زراعة محصول

الزيتون ومنها معرة النعمان التي اعتمدت في زراعته على مياه الأمطار والآبار[٢٠٧].

وأقبل الصليبيون على زراعة الزيتون، من أجل استخراج الزيت منه وتصديره إلى أوربا، وأيضاً من أجل أن يتبركوا بهذا الزيت الذي استخدمه السيد المسيح، ولأهميته الاقتصادية حيث دخل في العديد من الصناعات المختلفة التي دخلت في الاستخدام اليومي مثل صناعة الصابون.

وأدرك الصليبيون طبيعة الساحل الشامي وما يتمتع به من مميزات ومنها أنه يتجمع بالقرب منه الكثير من الأسمالك[٢٠٨]، وقد مارس الصليبيون حرفة الصيد من بداية ظهورهم في منطقة الساحل حتى يسد شيئاً من احتياجاتهم[٢٠٩]، وتمتعت منطقة الساحل بعدة مصايد مهمة منها بحر سدوم (البحر الميت) وبحيرة طبرية، واحتوت على نوع من الأسماك وهي سمكة الشبوط التي تعلق بها المسيحيون لأن السيد المسيح أكل منها[٢١٠].

كما عدت مدينة صيدا من مناطق صيد الأسماك التي تكثر في فصل الربيع، حيث تشتد الرياح في ذلك الفصل وتتصارع الأمواج فتكثر حركة الأسماك في تلك المنطقة[٢١١]، وضمت المصايد المهمة في الساحل بحيرة أفامية وهى بحيرة كبيرة بالقرب من نهر العاص، ويكثر بها نوع من الأسماك شبيه بالحيات يسمى أنكليس، ولحمه شبيه بالألية المشيويه، وكان يحمل في السفن إلى مختلف الأنحاء[٢١٢].

وعلى الرغم من أن الصليبيين تدخلوا في صناعات كثيرة للتصدير، إلا أنهم استعانوا بعناصر من العمال المحليين من سكان المدن للعمل في الصناعات الزجاجية[٢١٣]، وأهمها صناعة الزجاج الصافي الذي يتم تصنيعه من خلال استخراج رمل البحر واشتهرت بها مدينة صور[٢١٤]، كما ازدهرت في مدينة صيدا تجارة التحف الزجاجية والخزفية التي أقبل عليها التجار[٢١٥].

واهتم الصليبيون بالصناعات المعدنية والمواد الخام التي نشأت في منطقة الخليل، وصناعة الأملاح التي قام بها الصناع في الخليل على الرغم من أنها منطقة

برية، إلا أنه كان للبدو والعناصر الشامية الداخلية الآخرى دورٌ مهم في احتكار تجارة الاملاح ونقلها الى المنطقة الساحلية [٢١٦]، وضمت الصناعات الصلبة صناعة الرخام الذي اشتهرت به مدينة الرملة حيث تعددت ألوانه وأنواعه [٢١٧].

وقد قامت دمشق بتصدير الشموع الضخمة، التي كانت تفوح منها الروائح العطرة عند اشعالها، حيث لاقت إقبالا منقطع النظير في مملكة بيت المقدس الصليبية، وتم استخدامها في كل الكنائس اللاتينية في بيت المقدس وبيت لحم وغيرها من المدن الساحلية الشامية الأخرى [٢١٨]. كما أن إقبال الحجاج على السلع الشرقية الأخرى، جعلهم يقبلون على استخدام تلك الشموع في الكنائس أثناء أداء صلواتهم، بل وأخذها معهم إلى الكنائس في أوربا، على أساس أنها قادمة من الشرق.

وأقبل المسلمون على استخدام تلك الشموع، وقد ظهر ذلك في أثناء المواكب السلطانية، ومن ذلك عندما قام السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بالخروج من قلعة الجبل في القاهرة إلى دمشق، ثم من دمشق إلى مصر، حيث أمر جميع أهل الأسواق على طول الطريق أن يخرج كل واحد منهم وبيده شمعة موكبية، وووقفوا من باب النصر إلى مسجد القدم، فعندما ركب السلطان أشعلت تلك الشموع دفعة واحدة، فسار بينها حتى نزل مخيمه [٢١٩].

و لاقت الشموع إقبالاً كبيراً من جانب كل من المسلمين والصليبيين على حد سواء، وذلك حيث استخدمها المسلمون في المواسم الدينية والأعياد، وأيضاً عند خروجهم لمقابلة السلاطين – كما أشرنا سابقاً –، أما بالنسبة للصليبيين فقد حرصوا على استخدام تلك الشموع في الكنيسة أثناء تأديتهم لعباداتهم.

وعرف غرب أوربا منتجات الخضروات الشامية المتعددة، ومنها نبات السبانخ والخرشوف والباذنجان [٢٢٠]، كما زرعت في غزة نبات الجميز الذي لاقى شهرة جيدة [٢٢١]، وقد لاحظ الصليبيون نوعاً من الفاكهة وهي الخروب لحلاوة مذاقها وجمال طعمها، وقد أقبل عليها الصليبيون لتوفرها في الأسواق [٢٢٢]، كما زرعت في مدينة طرابلس أشجار الموز الذي سمى بتفاح الجنة [٢٢٣]، وقد كانت تفوح الرائحة من القوافل التي تمر بالمدن بسبب ما تحمله من فاكهة طازجة [٢٢٤].

الصعوبات التى واجهت الحركة التجارية :

وعلى الرغم من أن حركة الصادرات لم تتوقف بين الساحل الشامي، وأقطار البحر المتوسط المختلفة، إلا أنه وجدت بعض المعوقات أثرت في تلك الحركة، وهى تنقسم إلى ظواهر طبيعية ومنها الجراد الذي كثر ظهوره ببلاد الشام (٢٢٥)، فكانت له آثار سيئة بل ومدمرة على المحاصيل الزراعية مما دفع سلاطين المسلمين وملوك الصليبيين إلى التصدي لتلك الحشرة المدمرة (٢٢٦).

وبجانب هذا الجراد ظهر الفأر الذي كان يأكل الغلال ويخرب محصولها، مما كان يؤدي إلى إرتفاع أسعارها (٢٢٧)، ويضاف إلى ذلك الأوبئة التي تقع بالمنطقة الساحلية فتصيب الماشية والحيوانات وتفسد على آثارها الآبار (٢٢٨)، فآثر الصليبيون إلتماس الهدن حتى يصلحوا من أحوال الأراضي التي يحتلوها (٢٢٩) ، ولا شك فقد تأثر بالحشرات الضارة كل من المسلمين والصليبيين على حد سواء وخاصة في الناحية التجارية التي كانت تهم كلا من الطرفين، فكانوا يواجهون تلك الحشرات بمحاولة القضاء عليها وعقد الهدن فيما بينهم حتى يتسنى لهم ذلك.

و أثرت الزلازل في توقف حركة الصادرات، وقد أصيبت المدن الساحلية التي ضربها الزلزال بالشلل نتيجة مظاهر التخريب والدمار الذي تلحقه تلك الزلازل بالمدن، وأثر ذلك بالتالي في القوة الشرائية لهذه المنتجات وحدوث انخفاض لها وفي أعداد المستهلكين لتلك السلع في المنطقة الساحلية(٢٣٠).

والعامل الثاني في اضطراب حركة الصادرات بالساحل الشامي، هو عامل بشري، فقد سيطرت المدن الإيطالية البحرية منذ الحملة الصليبية الأولى على سواحل بلاد الشام مارست حركة التجارة (٢٣١)، بالإضافة إلى دخول مدن تجارية إيطالية وفرنسية وإسبانية أقل مستوى تجاري لتلك الفترة حتى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، حيث وصلت نشاطها إلى أقصاه في تلك المنطقة (٢٣٢)، حتى جاء زلزال حطين واستردت المدن الإسلامية من الصليبيين عمل صلاح الدين على إلغاء امتيازات المدن التجارية التي وقفت بجانب الصليبيين في معركة حطين (٢٣٣).

وجدير بالذكر هنا أن صلاح الدين بعد قيامه باسترداد المدن الإسلامية، فرق

بين المدن التي وقفت ضده في الحرب وبين المدن التي اتخذت موقف الحياد بين الطرفين، مما أدى إلى إلغائه لامتيازات المدن المعادية وإبقائه على امتيازات المدن التجارية الأخرى.

وبعد أحداث الحملة الصليبية الثالثة استمر البنادقة في ممارسة النشاط التجاري في كل من صور وعكا وأنطاكية وطرابلس، حيث قاموا بالتعامل مع التجار المحليين، الذين كانوا يعتمدون عليهم في نقل البضائع من الظهير الشامي إلى المنطقة الساحلية [٢٣٤]، غير أن تلك الأوضاع تغيرت مع مجيئ القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، فقد أحدث سقوط القسطنطينية على أيدي البنادقة في الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م/ ٦٠١هـ، خللا كبيراً بالسوق البيزنطية والشامية، واستولت البندقية على نصيب الأرباح الأكبر [٢٣٥].

وفي سبيل تحقيق تلك الأرباح الكبيرة، وفرض البندقية سيطرتها البحرية في شرق البحر المتوسط، فقد عملت على مساندة قوافلها التجارية بأسطول حربي، حتى تستطيع إرسال المساعدات إلى مستعمراتها في الشرق، ولكي تهاجم سواحل ومستعمرات المدن الأخرى المنافسة لها تجاريا [٢٣٦].

ولم تقف مدينة جنوا المنافس التقليدي للبندقية مكتوفة الأيدي، فقد حاولت احتلال جزيرة كريت التي اشترتها مدينة البندقية، حيث مثلت كريت محطة رئيسة وحيوية على الطريق التجاري البحري الذي يصل بين كل من مصر بيزنطه ومدن الساحل الشامي، والتي مثلت نقطة انتظار ومحطة تموين للمدن التي تقع غرب البحر المتوسط في طريقها إلى الشرق وبالعكس [٢٣٧].

ويلاحظ أن الصراع الجنوي البندقي في البحر المتوسط، ترك أثراً كبيراً وخطيراً على مسيرة الحركة التجارية، فلم يكتف الطرفان في صراعهما على الساحل الشامي وموانيه، بل امتد الصراع إلى السيطرة على الجزر والطرق المؤدية إليه لتحقيق أكبر مكاسب تجارية.

واستمر الصراع البندقي الجنوي حتى عام ١٢٦١م / ٦٥٩هـ، وهو العام الذي مثل كارثة تجارية كبيرة للبنادقة الذين تم طردهم من القسطنطينية على أثر

عودة البيزنطيين إلى عاصمتهم، وبالتالي كان على الثاوت أن يقوموا برحلات استكشافية للوصول لمنابع تجارة الشرق[٢٣٨]، وظهرت في الأفق مع حلول منتصف القرن الثالث عشر الميلادي – (السابع الهجري)، بوادر غزو مدمر بدأت في الشرق الأقصى ضد كل من العرب والمسلمين فيما عرف بالغزو المغولي [٢٣٩].

وصلت الجيوش المغولية للعراق واستولت على بغداد ١٢٥٨م/٦٥٦هـ، مما أدى إلى توقف الطرق البرية للقوافل القادمة من وسط أسيا إلى غربها بالساحل الشامي، وتركزت الطرق التجارية بين الشرق والغرب في طريق البحر الأحمر ومصر المملوكية جنوبا من ناحية، وطريق طرابيزون شمالا بآسيا الصغرى من ناحية أخرى، وبذلك تأثرت تجارة المدن الأوربية بالساحل الشامي [٢٤٠].

وأدى الغزو المغولي لوسط وغرب آسيا إلى اضطراب في طرق التجارة المارة بتلك المنطقة، مما أدى بدوره إلى خوف التجار من ارتياد تلك الطرق خوفاً على تجارتهم من السلب والنهب على أيدي المغول وقطاع الطرق، فساعد ذلك على تعطل حركة التجارة بتلك المنطقة.

وجاءت حالة الضعف في الحركة التجارية مع سقوط المدن الساحلية الشامية على المماليك، وقد قاموا بذلك خوفا من قدوم حملات صليبية جديدة على السواحل الشامية التي كانت تحت احتلالهم، فخربوا حصونها ودمروا أسوارها، وتم تدمير كل من عكا وصور وصيدا وغيرها، ومحت طرابلس تماما وتم نقل أهلها إلى الظهير الداخلي، فأثرت تلك الضربات على مجرى الحياة الاقتصادية [٢٤١].

و تأثرت حركة الصادرات من الساحل الشامي إلى الغرب الأوربي ومدن البحر المتوسط، تأثراً كثيرا بما يدور على الساحة السياسية من معارك بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، فقد نشطت مع فترات الهدوء والهدن التي عقدت بين الطرفين، وكان للعوامل الطبيعية تأثيرها القوي على مسير تلك الحركة.

وتمثل العامل الأكثر أهمية في توقف حركة الصادرات وهو الاتجاه إلى شراء السلع التي كانت تصدر عن طريق مدن الساحل الشامي إلى المدن الأوربية المختلفة، من أماكن أخرى غير تلك الأراضي التي سيطر عليها سلاطين المماليك،

وتلك الأماكن هى بغداد aldach، وطوريس Touris، عبر البحر المتوسط بحرا، وبرا عن طريق أرمينيا الصغرى، وبذلك حتى يتم إضعاف قوة سلاطين المماليك اقتصاديا [٢٤٢].

ولجأ الغرب الأوربي إلى محاربة المسلمين حربا اقتصادية علنية، خاصة بعد طرد بقايا الصليبيين من بلاد الشام، ولذلك بدأ البحث عن أماكن بديلة أخرى لشراء السلع التي كان يحصل عليها من مدن الساحل الشامي، والقيام بمحاولات للتوغل داخل قارة آسيا، من أجل الوصول لمنابع السلع التجارية مثل الحرير والتوابل، ويلاحظ أن تلك الخطوة كانت نقطة البداية لحركة الكشوف الجغرافية، والدوران حول قارة أفريقيا من أجل الوصول للشرق الأقصى دون المرور في الطريق التقليدي في البحر المتوسط، ثم عبور الأراضي المصرية والشامية للوصول إلى تجارة البحر الأحمر.

الواردات في حركة التجارة:

أما الواردات فكان لها دور بارز في الحركة التجارية، وبدأت تلك السلع في الوصول للساحل الشامي في وقت مبكر من الغزو الصليبي لبلاد الشام، فأثناء الحصار الذي فرضته الجيوش الصليبية الغازية لمدن الساحل الشامي، كانت السفن التجارية الإيطالية والبيزنطية تقدم المنح والمساعدات لتلك الجيوش الغازية في أثناء حصارها للمدن الساحلية الشامية واستيلائها عليها [٢٤٣].

و قد سبقت سلع الواردات سلع الصادرات في الحركة الاقتصادية التي قامت في الإمارات التي أسسها الصليبيون، وذلك لحاجة الصليبيين في مرحلة مبكرة من استعمارهم للمدن الساحلية الشامية إلى دعم الوطن الأم في أوربا لهذا الجنين الوليد غير الشرعي في منطقة غير منطقته، مما أدى إلى مسارعة المدن الأوربية لنقل الدعم إليه.

وفي بادئ الأمر كانت الأرض التي استولى عليها الصليبيون فقيرة من الناحية السكانية، وقد ظلت تلك مشكلة تؤرقهم فترة طويلة حتى طردهم من بلاد الشام، فكان الحجاج يأتون في سفن منفردة أو في أسطول صغير من ثلاث أو أربع

سفن، فيصلون إلى بيت المقدس ويزورون قدس الأقداس، ويبقى منهم القليل ويغادر الآخرون [٢٤٤].

ومن أهم السلع التي كانت تأتي للساحل الشامي هي الرقيق،والتي أقبل عليها سلاطين المسلمين وخاصة الأيوبيين والمماليك الذين قاموا بشرائهم بأعداد كبيرة، وقد ازدهرت تجارتها في ذلك الوقت، حيث كانت الجيوش الإسلامية في حاجة شديدة إليهم لكي يتم تجنديهم [٢٤٥].

وتجدر الإشارة إلى أن الأوضاع في تكوين الجيوش الإسلامية قد تغيرت كثيرا، فبعد أن كان العرب هم العصب الأساسي لتكوين الجيوش الإسلامية، ومع توسع إمبراطورية الإسلام ظهرت عناصر جديدة دخلت في تكوين تلك الجيوش، ومنها أهالي المدن التي فتحها المسلمون، وبعد ذلك تطور الوضع حيث قام الخلفاء والسلاطين بشراء الرقيق من الأسواق المختلفة، وعملوا على تعليمهم الدين الإسلامي وتدريبهم على حمل السلاح وتنشئتهم نشأة عسكرية.

وتركزت تجارة الرق في أيدي التجار البنادقة والجنوية، الذين أثروا ثراء فاحشا من جراء مزاولتها، بل لقد وصل مندوبون عنهم إلى البلاد البعيدة حتى بلغوا بلاد ما وراء النهر [٢٤٦]، وقد كانت تلك التجارة بأيدي اليهود والسوريين، حيث قاموا بجلب العبيد من روسيا وبولندا وألمانيا، وتصديرهم إلى بلاد الشام حيث أقبل السلاطين على شرائهم [٢٤٧].

ومع مجيئ الصليبيين لبلاد الشام سيطرت المدن الإيطالية على تلك التجارة، وقاموا بجلب الرقيق من الموانئ الأوروبية إلى مدن المشرق الإسلامي [٢٤٨]، وقد تصدرت مدينة اللاذقية لتلك التجارة وأصبحت مركزا لها في عصر الاحتلال الصليبي لها، حيث استقبلت الرقيق القادم من البحر والقادم من آسيا الصغرى وروسيا وأرمينيا [٢٤٩]، وقد عقدت أسواق نشطة للرقيق، حيث تجمع بها التجار الإيطاليون لشراء الأسرى من المسلمين والمسيحيين، ولأن تعاليم المسيحية حرمت استعباد المسيحيين، غير أن تجار العبيد أهملوا ذلك القانون [٢٥٠].

و يرجح أن الثراء السريع، الذي نتج عن تجارة الرقيق بالمشرق الإسلامي،

وبالساحل الشامي على وجه الخصوص، جعل التجار الأوربيون يتغاضون عن الكثير من تعاليم المسيحية التي أعلنت تحريم استعباد المسيحي للمسيحي، وذلك سعيا وراء المكسب المادي العائد عليهم من تلك التجارة.

و تحددت الطلبات على بعض الجنسيات التي زاد عليها الطلب في الساحل الشامي، ومنها عنصر الصقالبة والسلاف الذين زينوا قصور الخلفاء والسلاطين وخاصة الجواري منه [٢٥١]، وجاء في المرتبة الثانية الرقيق الأسود، حيث امتلكت معظم زوجات النبلاء من الصليبيين عددا من الجواري السود، حيث كان يتم جلبهن من الحبشة إلى ميناء جدة ثم يتم نقلهم إلى بلاد الشام [٢٥٢].

وكان للرقيق والجواري أهمية كبرى، حيث حرص الملوك والأمراء على شراء أنواع معينة وكانت تظل قابعة في قصور السلاطين والأمراء، حيث قاموا بإهدائهم إلى من يريدون، ومن أجل أن يظهروا لمن يحضر إليهم من الرسل مظاهر القوة والترف.

وجاءت تجارة الأسلحة في المركز الثاني من سلع الواردات إلى الساحل الشامي، فقد قامت المدن التجارية الإيطالية بلعب دور مهم في تجهيز المسلمين بالمواد الإستراتيجية التي اعتمدوا عليها في مواجهة الصليبيين [٢٥٣]، وأهم تلك المواد هى الأخشاب وخاصة الخشب الذي استخدم في صناعة السفن وآلات الحصار[٢٥٤]، فعلى الرغم من وجود غابات في الأراضي الإسلامية، غير أنها لم تمتيز أخشابها بالمتانة والصلابة اللازمتين لبناء السفن والآلات الحربية حيث استوردت من أوربا[٢٥٥].

و قام صلاح الدين الأيوبي باستغلال تلك الأخشاب القادمة في صناعة أسطول واجه به أسطول أرناط عندما قام هذا الأخير بعملياته العسكرية في الحجاز عبر البحر الأحمر[٢٥٦]، وحرص حكام المدن الساحلية الشامية من الصليبيين على عقد الهدن في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، مع سلاطين المماليك لكي تستمر تجارة الواردات وتكثر الأجلاب، ومنهم الاء وبيروت[٢٥٧].

وكان لتجارة الأسلحة والأخشاب تأثير على المسرح السياسي والعسكري، فقد تمكن المسلمون عن طريق استيراد احتياجاتهم من هذه السلع المهمة، أن يقاوموا بها أسلحة الصليبيين التي واجهتهم، بل أيضا اخترعوا أسلحة جديدة في وقت شهد سباقاً للتسلح بين الطرفين.

ومع استمرار العمليات العسكرية التي وقعت بين المسلمين والصليبيين من جهة، والصراعات التي تقع داخل المعسكرين من جهة أخرى، أدت إلى نشاط التجار الأوربيين في عملية بيع الأسلحة إلى كل من الفرق المتنازعة، حيث ربح هؤلاء التجار من وراء ذلك أموالا كثيرة [٢٥٨]، ولذلك كانت الحروب الصليبية بمثابة نقطة تحول كبيرة في تاريخ أوربا الاقتصادي [٢٥٩].

وبالمقارنة بين تجارة الرقيق وتجارة الأسلحة، نجد أن تجارة الرقيق مثلت أهمية كبرى بالنسبة للمماليك الذين حرصوا على تدعيم جيوشهم بتلك العناصر التي ضمنوا ولاءها، حيث قاموا بشرائهم وتربيتهم تربية عسكرية، مع تعليمهم للشريعة الإسلامية، في حين نجد أن تجارة الأسلحة جاءت في المرتبة الثانية حيث عمل المسلمون على تصنيع الأسلحة من المواد المتوفرة لديهم، والتي كان نقصها لم يمثل لهم مشكلة كبيرة، حيث امتلك المسلمون الكثير من الأراضي الشاسعة المساحة، التي وجدت بها العديد من الغابات، حيث أخذوا منها الأخشاب التي دخلت في صناعة الأسلحة وأدوات الحصار والأساطيل البحرية، ومن جانب آخر شملت تلك الأراضي العديد من المناجم التي أخذوا منها الكثير من المعادن التي دخلت في استخدامات عديدة.

حظيت تجارة المعادن مكانة كبيرة في الساحل الشامي، وأهم تلك الواردات من المعادن هى الفضة، وهى معدن أمكن للتجار الغربيين تقديمها للعالم الإسلامي، وقد حدث سوء للفهم بالنسبة لمعدن الفضة الذي استخدم في سك العملات، على أنه علامة للضعف الاقتصادي للدولة، ومع ذلك فقد استخدمت الفضة بشكل كبير بجانب الذهب في سك العملات ولم يؤثر ذلك على قيمة الاقتصاد [٢٦٠].

ومن الملاحظ أن معدن الفضة الذي كان يعتقد أنه علامة من علامات الضعف الاقتصادي، إلا أن معدن الفضة دخل في كثير من الصناعات مثل سك

العملة وصناعة المجوهرات والتحف الخشبية.

ودخلت معادن أخرى في الأهمية الاقتصادية ومنها معدن النحاس، وقد اشتهر منه نوعان الأحمر ولايختلف في أماكن إنتاجه. أما النوع الأخر وهو الأصفر فإنه يختلف بحسب الأماكن التي يستخرج منها، وأفضل أنواعه الذي جلب من الأندلس حيث برع الصناع في صنعه وتشكيله، ونال الزئبق أيضا شهرة كبيرة لدخوله في العمليات الكيمائية، وأفضل أنواعه هي التي يتم جلبها من مدينة طليطلة بالأندلس (٢٦١).

ومن السلع التي لعبت دوراً مزدوجاً في الصادرات والواردات، الأقمشة التي قام الجنويون بتصديرها إلى الساحل الشامي (٢٦٢)، حيث لعبت سلعة الأقمشة دورا مهما في الاقتصاد المحلي لجنوا، ولذلك ساهمت النساء أيضا في تلك التجارة لأهميتها الاقتصادية (٢٦٣)، ولقد اشتهرت مدينة المرية الأندلسية بتجارة المنسوجات الحريرية التي صدرتها إلى الساحل الشامي (٢٦٤).

ويبدو أن الأقمشة التي كانت ترد إلى الساحل الشامي تم لها إعادة تصنيع مرة أخرى على النظم الشرقية، لمهارة الصناع الشاميين الذين برعوا في ذلك المجال، أو أن ذلك الحرير تم تصديره للساحل الشامي كمادة خام فدخل في تصنيع الحرير، ثم عاد تصديره مرة أخرى إلى أوربا.

ونظرا لزيادة أعداد الحجاج القادمين لبلاد الشام، لم تكن المواد الغذائية تكفي حاجاتهم، فكانت تأتي احتياجاتهم من الخارج، ومن ذلك الأسماك التي كانت بمثابة طعام شعبي لأهل الساحل، فكان يتم استيراد السمك البوري من مدينة دمياط المصرية حيث كثر بسواحلها (٢٦٥)، بالإضافة إلى واردات السفن التجارية الأوربية للأسماك من غرب أوربا حيث مراكز تجمع الأسماك ومسار رحلتها إلى الشرق، وخاصة في المراحل الأولى من الاستيطان الصليبي بالساحل الشامي (٢٦٦).

واحتاج الساحل الشامي إلى الكثير من المواد الغذائية التي كانت تأتيه من الخارج مثل الحنطة التي كانت تأتيه في سفن خاصة مع الحجاج (٢٦٧)، بالإضافة إلى القمح الذي استخدم من كلا الجانبين: الإسلامي والصليبي (٢٦٨)، بل إن الزيت

والعسل وأصبح العلف (الذي خصص للماشية) من الواردات المهمة للمنطقة الساحلية الشامية[٢٦٩]، ودخلت بعض السلع التي لم تكن مرغوبة في العالم الإسلامي واقتصرت على الأراضي التي سيطر عليها الصليبيون ومنها لحم الخنزير المملح والذي مثل سلعة مهمة لهم [٢٧٠].

ولم تستأثر المدن الساحلية الشامية بتصدير المنتجات الآسيوية فقط، بل استقبلت المنتجات القادمة من أفريقيا ومنها الشب الذي كان يوجد في مصر وتحمله القوافل الى الأراضي الشامية، وقد لاقى نجاحاً كبيراً في الحركة التجارية لاستخدامه في الصباغة والطب حيث يستخدم لعلاج أمراض العيون وحفظ بعض الأطعمة وبخاصة اللحوم التي تفسد سريعا [٢٧١].

وأصبح الساحل الشامي نافذة لتصدير المنتجات الإفريقية التي كانت تأتيه بالقوافل عبر الطريق البري في سيناء الذي شهد صراعا إسلاميا صليبيا للسيطرة عليه لما به من مميزات خطيرة.

وقد دخل نبات البلسان – وهو نبات مصري يزرع بالمطرية – إلى ما تستورده مناطق الساحل الشامي من أفريقيا، والتي تسابق عليه التجار الأوربيون لشرائه، ونظراً لأهميته ؛ فقد عين له سلاطين وحكام مصر من يحفظه ويحمله إلى الخزانة، ومنها يتم نقله إلى قلاع الشام والبيمارستانات لمعالجة المرضى، وقد تدخل ملوك وأمراء الصليبيين عند حكام مصر لتامين وصول ذلك النبات إليهم، لأنه يدخل في عملية التعميد ومعالجة مرض ارتخاء الأعصاب [٢٧٢].

وكان من بين الواردات إلى الساحل الشامي، الثروات المالية التي أرسلها الغرب الأوربي من أجل استعادة الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين – على حد زعمهم – فقد كانت أموال وفيرة تكونت من مساهمات الأفراد والحجاج وغيرهم، ولاسيما منتجات الثروات الغربية للجماعات العسكرية والتي نقلت على ظهر سفنهم الخاصة، بالإضافة إلى تبرعات أخرى كثيرة عهد بها إلى التجار الإيطاليين[٢٧٣].

وكان على التجار القادمين إلى الساحل الشامي أن يقيموا فترة طويلة في

المدن الساحلية حتى يتمكنوا من بيع السلع التي أحضروها معهم إلى الساحل الشامي، وأيضا حتى يجدوا شحنات السلع التي سوف يشترونها ويعودون بها إلى أوربا، بل وفي طريق العودة إلى أوطان التجار، كانت القافلة التجارية تمارس التبادل التجاري في المدن التي تقف بها كمحطات في طريق العودة (٢٧٤).

ومن الواضح أن الصليبيين في مدن الساحل الشامي في القرن الثالث عشر الميلادي – السابع الهجري، لم تكن لهم الرغبة في قدوم حملات صليبية جديدة إلى المنطقة، فقد غلبت عليهم الصفة الشرقية، وارتكنوا إلى حياة الخمول والبذخ، وأبدوا الرغبة في التعايش السلمي مع المسلمين، مما كان له أبعد الأثر في ازدهار التجارة، وبمعنى أدق يمكن القول أن الروح الصليبية في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي – السابع الهجري حلت محلها الروح التجارية (٢٧٥).

ولم تسلم سلع الواردات من المعوقات التي واجهتها سلع الصادرات، وخاصة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي /السابع هجري، حيث الغزو المغولي لوسط وغرب أسيا، وبعد معركة عين جالوت وتولي بيبرس للسلطة ١٢٦٠م /٦٥٨هـ وكان عند الجانبين المغولي والإسلامي خوف من بعضهما البعض لكون أى فريق منهما يرسل جواسيسه في هيئة تجار، ولذلك سعد بيبرس كثيرا لأنه استلم البضائع القادمة من الأراضي التي استولى عليها المغول(٢٧٦).

وبذلك لم ترجع الحالة والنشاط التجاري بعد الغزو المغولي إلى سابق عهدها، بل اضطربت الحركة التجارية تماما، لدرجة أن التجار التركمان الذين حملوا السلع إلى المسلمين كانوا تحت هيمنة المغول (٢٧٧)، وقد جاء طرد الصليبيين من الساحل الشامي عاملاً مهماً في اختلال تلك الحركة مع الغرب الأوربي، خاصة بعد تدمير موانئ الساحل الشامي (٢٧٨)، بل لقد قام الملك هنري آخر ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية، بعد فراره إلى جزيرة قبرص، بتجميع أسطول صغير لكي يمنع به السفن القادمة إلى الساحل الشامي بهدف التجارة مع المسلمين (٢٧٩).

وكان للقرن الثالث عشر أثره فى التغيرات التى طرأت على الخريطة السياسية في المنطقة، وحدوث خلل كبير بالقوى الدولية، حيث سقطت الكثير من الممالك الإسلامية في وسط وغرب آسيا على أيدي المغول، مما أدى إلى إشاعة

الفوضى والاضطرابات في الطرق التجارية، ويضاف إلى ذلك نشاط حركة الجهاد الإسلامي على أيدي المماليك، مما أدى إلى وجود فوضى في منطقة الساحل الشامي.

وكان للبابوية دور مهم في إيقاف العلاقات التجارية مع المسلمين [٢٨٠]، ففي عام ١١٧٩م/٥٧٥هـ ، عقد البابا إسكندر الثالث مجمع لاتران[٢٨١]، وذلك بهدف تحريم المتجارة مع المسلمين [٢٨٢]، بل أنه مع فقدان عكا والساحل الشامي رسميا أعلن الحرمان على الذين يذهبون إلى الأراضي الخاضعة للمسلمين أو يرجعون منها محملين بالبضائع، وقد شمل التحريم السفلة ويعتبرون محرومين من الوصية، أي أنهم لا يستطيعون أن يكتبوا وصيتهم [٢٨٣].

وأدركت البابوية مدى تأثير الحركة التجارية في الساحل الشامي على الحملات الصليبية، حيث أدى ذلك إلى ظهور الفتور بين شعوب الغرب الأوربي للقيام بحملات صليبية جديدة على الأراضي الإسلامية في بلاد الشام، فلم تتمكن تلك الحملات من تحقيق أغراض البابوية، لذلك نرى البابوية تقوم بإصدار قرارت حرمان ضد كل من يقوم بممارسة التجارة مع المسلمين.

و شمل هذا القرار رغبة الغرب الأوربي في إعادة إستعمار الأراضي المقدسة، ومن أجل ذلك تم حظر تصدير مواد الحرب إلى سلاطين المماليك والتي اشتملت على العبيد والسلع التجارية للمواني الشامية، وفرض سياسة عسكرية وإعلانها حرب اقتصادية، وتم بالفعل ممارسة هذا الحظر الذي أعلنته البابوية، وقامت دوريات بحرية بهدف منع السفن من حمل السلع إلى بلاد الشام [٢٨٤].

ومثل استعادة سلاطين المماليك للمدن الساحلية، وطرد بقايا الصليبيين من المنطقة الإسلامية، صدمة كبيرة أذهلت الغرب الأوربي والبابوية على وجه الخصوص، حيث بذلت ما في وسعها من أجل استعادة بيت المقدس، فأعلنت قرارات بالحرمان كل من تسول له نفسه بالإقدام على التجارة مع المسلمين.

واستجابت الجمهوريات الإيطالية للقرارات التي أصدرتها البابوية بوقف الاتجار مع المسلمين بالساحل الشامي، ومقاطعة تجارة المرور بين الشرق

والغرب، والتي كان يستفيد منها المسلمون، وأرادوا بذلك ضرب اقتصاد سلاطين المماليك وحرمانهم من عائد مادي مثل عصب اقتصادهم وقوتهم ليسهل عليهم بعد ذلك هزيمة المماليك اقتصاديا وعسكريا بعد إفقادهم قوتهم البحرية الضاربة (٢٨٥).

ومن الملاحظ أن قرار المدن التجارية الإيطالية بالاستجابة للقرارات التي أصدرتها البابوية، كان الهدف من ورائه ضرب الاقتصاد الإسلامي، وخاصة في تجارة العبور التي تمتعت بها الأراضي الإسلامية، غير أن تلك الاستجابة كانت لفترة قصيرة، حيث بدأت الخسائر المالية تلحق بهم، مما أدى إلى معاودتهم لممارسة التجارة مع المسلمين مرة أخرى.

مما تجدر الإشارة إليه أنه استجابة المدن البحرية التجارية للقرارات التي أصدرتها البابوية لفترة قصيرة، فقد وجدوا أنه من الملائم والمربح لهم معاودة زيارة الموانى السورية مرة أخرى حتى يتمكنوا من الإقامة هناك مرة أخرى، ولكي يجددوا العلاقات التجارية مع سلاطين الإسلام (٢٨٦).

وكانت العاطفة الدينية عند المدن التجارية الإيطالية أقل من حبهم للمال والتجارة، لذلك كانوا لايلتزمون بقرارات الحرمان التي قامت البابوية بفرضها على كل من يتعامل مع المسلمين، وخاصة عندما لم تأت الحملات الصليبية التي قامت بإرسالها إلى الساحل الشامي أهدافها.

وبالمقارنة بين المعوقات التي شهدتها كل من سلع الصادرات وسلع الواردات، نجد أنها كانت مشتركة فيما بينهم، فقد كان للظوهر الطبيعية من زلازل وهجوم الحشرات أثرٌ على تلك الحركة، بالإضافة إلى الأحداث السياسية التي شهدتها منطقة الساحل الشامي، من المعارك بين المسلمين والصليبيين، بالإضافة إلى ظهور عدو جديد في شرق آسيا وهو المغول الذي اكتسح العديد من الممالك الإسلامية في غرب أسيا، كل ذلك أدى إلى اضطراب في حركة الصادرات والواردات.

وخلاصة القول أن المدن الساحلية الشامية شهدت بروز عدد منها، وأصبحت بمثابة مراكز تجارية سواء للصليبيين أو المسلمين على حد سواء، بالإضافة إلى

ذلك صدرت هذه المدن العديد من السلع التجارية، التي كانت تأتي من وسط آسيا عن طريق القوافل التجارية، أو السلع التي كانت تنتج في هذه المدن، وبجانب ذلك استقبلت تلك المدن الكثير من السلع التي أحضرها التجار الأوربيون معهم من أوربا من أجل التبادل التجاري.

أثر الاستيطان على المنشآت التجارية:

ظلت الأسواق في الساحل الشامي على نظامها القديم، أثناء خضوع المنطقة للسيطرة البيزنطية، فقد كانت الأسواق في وضع مرتفع وعظيمة الاتساع، ووضع على جانبي السوق إفريزين لكي يتمكن الناس من الذهاب والإياب عليها في زمن الشتاء إذا لم يكن السوق مبلطا (٢٨٧).

واتصفت الأسواق في مدينة صيدا على سبيل المثال بالجمال والنظافة، إلى جانب إنها كانت مزينة، وتلك كانت عادة أهل مدينة صيدا، ومثال آخر مدينة طرابلس التي تميزت أسواقها بوجود نافورة بمنتصف السوق إلى جانب الزينة، وقد كانت هذه النافورة يخرج منها خمسة صنابير كل واحد يخرج منه الماء باستمرار، حيث يأخذ منه الناس حاجتهم ويفيض باقي الماء على الأرض، فيتم صرفه إلى البحر (٢٨٨).

وحرص أهالي المدن الساحلية الشامية مثل مدينة صيدا وطرابلس، على تزيين ونظافة أسواقهم، وذلك حتى تكون من عوامل الجذب بالنسبة لكل من مرتادي السوق من الزائرين والتجار.

وقد وجدت في مدن الساحل الشامي، الأسواق الكبيرة التي سميت بإسم القصبة، وهى أعظم أسواق المدينة، لأنها احتوت على آلاف الحوانيت، وهذه الحوانيت عامرة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة، التي كانت تبهج وتسر كل من كان ينظر إليها (٢٨٩).

وتميزت الأسواق الإسلامية في المدن الساحلية الشامية عن الأسواق التابعة للصليبيين، بوجود القصبة أو السوق الرئيسي (الكبير)، الذي احتوى على الكثير من الحوانيت الصغيرة، والتي من المرجح أنها كانت تابعة لأصحاب الحرف اليدوية،

الذين كانوا يصرفون انتاجهم مباشرة للأسواق.

وأحيطت الأسواق في بعض المدن بالأسوار، مثل مدينة الرملة التي وجدت بها أربعة أسواق متصلة مع بعضها من أربعة أبواب إلى وسطها، ومنها سوق القماحين الذي يدخل إليه من باب يدعى يافا، ويتصل بسوق البصالين، ومنه إلى مسجد جامع، ومن باب يدعى القدس ينفذ منه إلى سوق القطانين ومنه يصل إلى سوق المشاطين، حيث يتم مشط الكتان، ومنه إلى سوق العطارين إلى مسجد جامع يتصل بسوق الحبابين، ومع مقدم الصليبيين للمنطقة واستعمارها، تمت إزالة تلك الأسوار التي أحاطت بتلك الأسواق [٢٩٠].

ويبدو أن أهالي المدن الساحلية الشامية قد اهتموا بتخطيط الأسواق، وقد كان يراعى عند نهاية كل سوق، وضع بوابة أو حاجز حتى يستقل عن السوق الذي يليه، لتكون هناك الخصوصية لكل سوق، وتجمع كل تجار سلعة واحدة في سوق خاص بهم.

أما بالنسبة للتوزيع المكاني للأسواق، فقد تم مراعاة اعتبارات عديدة في توزيعها، وهي حاجة السكان المتكررة والضرورية لبعض السلع التي تتطلب وجود أسواق معينه في جميع قطاعات المدينة دون استثناءات، ولذلك وجدت أسواق عليها كثافة شديدة، مثل السوق الذي اشتمل على الخبازين والعطارين والصاغة، وتلك الأسواق وقعت في منطقة مركزية للمدينة كانت على امتداد شارعها الرئيسي [٢٩١].

و هذا التوزيع الذي كان يوجد في معظم المدن الساحلية، طبقا لاحتياجات السكان للسلع التي دخلت في الاستهلاك اليومي، وكان عليها طلب مستمر، ولذلك وقعت وسط المدينة حتى يسهل الوصول إليها.

و تمت مراعاة تخطيط الأسواق، حيث إن السوق الذي خصص للأعشاب يتم فيه بيع جميع أنواع الأعشاب كافة، وكذلك الوضع بالنسبة للفاكهة بأنواعها، والتوابل وغيرها من السلع الآخرى، وقد تم وضع سوق السمك في أول الشارع الذي احتوى على المحال التجارية، وخلف سوق السمك وجد السوق الخاص ببيع الجبن والدواجن والبيض والطيور، وفي الجهة اليمنى من سوق الجبن، وجدت

المحال الخاصة بالصاغة السريان، حيث كان الحجاج الأوربيون يحضرون معهم النفائس والمجوهرات لكي يقوموا ببيعها في هذا السوق، وفي الجهة اليسرى من هذا السوق وجد سوق الذهب التابع للاتين [٢٩٢].

ومن الملاحظ أنه في عصر الحروب الصليبية عند تخطيط الأسواق، تمت مراعاة مسألة ترتيب السلع بجانب بعضها، فقد وضع السمك في أول الشارع، نظرا للرائحة والمخلفات التي تنتج عنه، وحتى لا تفسد السلع المجاورة الآخرى، وفي نهاية الشارع وجدت محلات الذهب حتى تبتعد عن زحام الأسواق الآخرى.

بينما كانت البضائع التي تطلبت صناعتها إلى أفران، فكانت أسواقها تتجمع على الحافة الخارجية للمدينة حيث تشتعل النار ويتم استخدام الماء الساخن بشكل حر [٢٩٣].

وجاء تخطيط الأسواق في شكل دقيق، حيث تم استبعاد البضائع التي تتطلب صناعتها إلى استخدام النار والماء الساخن، مما كان له أثر ضار على السلع التي تجاوره.

وحدث نوع من التجاور بين أسواق السلع المتشابهة أو السلع التي يكمل بعضها بعضا، فمن الطبيعي أن تتجاور أسواق الأطعمة مع التوابل التي تستخدم في تحضيرها، كذلك أسواق الملابس مع أسواق الغزل والنسيج [٢٩٤].

ومن الملاحظ أن نظام تجاور أسواق السلع الواحدة أو المتشابهة، أدى إلى أن الزائر للأسواق وجب عليه أن يقطع الأسواق طولا وعرضا، حتى يستطيع إكمال شراء احتياجاته.

وأدت الزيادة في أعداد الحجاج في القرن الثاني عشر الميلادي، (السادس الهجري)، مع وصولها على السفن الأوربية بأعداد كبيرة إلى ظهور نوع جديد من الأسواق، وهو سوق خصص لطبخ الطعام، والذي كان يخدم الحاجة الشديدة في الطعام للحجاج قبل ذهابهم للصلاة في الأماكن المقدسة [٢٩٥]، معتمدا في ذلك على السلع التي تأتي مباشرة من الميناء مثل السمك، لكي يتم طهيه للحجاج، مع السلع الآخرى التي يتم توزيعها على الأسواق، وتدخل في الاستهلاك اليومي مثل التوابل

والخضروات [٢٩٦].

و نشأت أسواق الطهي لتخدم الأماكن المقدسة والقادمين عليها من الحجاج الأوربيين، في مقابل الأرباح المالية التي حصل عليها التجار من وراء ذلك، وتخفيفا على الحجاج وتيسيرا لهم أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة ليتفرغوا لأمور رحلتهم المقدسة.

وأدت الزيادة في الحركة التجارية في الأسواق بالمدن الساحلية الشامية، إلى ظهور نوع من الأسواق يعرف بسوق الجملة، ودخل فيه سوق الماشية وسوق الحبوب وسوق الطيور، وكانت تلك الأسواق متقاربة من بعضها في مربعات مفتوحة موصلة ببعضها [٢٩٧].

أما مواعيد انعقاد تلك الأسواق فمنها السوق اليومي الذي خصص لتلبية طلبات السكان اليومية، ومنها أيضا السوق الموسمي وهو الذي اعتمد على قدوم القوافل التجارية [٢٩٨]، مثل القوافل المحملة بالحرير القادمة من الصين، وتجارة الكهرمان القادمة من بحر البلطيق وتجارة البخور القادمة عن طريق اليمن[٢٩٩].

من ناحية أخرى فقد شهدت الأسواق الموسمية قدوم وإقبال التجار عليها وخاصة من مصر والعراق والحجاز لتصريف منتجاتهم [٣٠٠]، وقد عقدت تلك الأسواق الموسمية خارج المدن بالقرب من أبوابها، حتى تتسع للتجار القادمين من المدن القريبة ببضائعهم ذات الأحمال الثقيلة والأحجام الكبيرة لكي يستطيعوا التنقل بحرية[٣٠١].

ومن الأسواق الموسمية التي ذاعت شهرتها في فترة الحروب الصليبية، غير أنه هذه المرة وجد في منطقة الظهير الشامي، هو سوق مزريب Mauzarib، والذي يقع في منطقة الجليل شمالي فلسطين، وبالتحديد عند السهل الفسيح أو الميدان الموجود في منطقة حوران، حيث يجري نهر اليرموك، ومن المفترض أن هذا السوق كان يقام عند وصول القوافل التجارية القادمة من مكة في مستهل الصيف، حيث كان العديد من التجار المسلمين يحضرونه، ومن المرجح اشتراك التجار الصليبيين في هذا السوق على اعتبار وقوعه على حدود مملكة بيت

المقدس(٣٠٢).

وقد ارتبطت بالأعياد المسيحية والاحتفالات الدينية لدى المسيحيين في مدينة القدس في الفترة الصليبية، وجود بعض الأسواق السنوية التي تخصصت في بيع بعض السلع المستخدمة في هذه المناسبات، ومن ذلك وجود شارع خصص لبيع سعف النخيل، وقد وجد هذا السوق في مدينة بيت المقدس في فترة باكرة من الوجود الصليبي، وخاصة في عهد الملك بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨م)، وكان هذا السوق يرتاده الحجاج المسيحيون ليشتروا منه سعف النخيل الذي كانوا يحملونه على صدورهم على شكل صليب عند عودتهم إلى أوطانهم (٣٠٣).

ومع تزايد الحركة التجارية بالساحل الشامي، حدث للأسواق نوع جديد من إعادة التقسيم أو التخصص في السلع، فظهرت الأسواق اليومية لتلبية حاجات السكان والأسواق الموسمية أو الأسبوعية، وخصصت للقوافل التجارية سواء القادمة برا من وسط آسيا أو بحرا من مدن البحر المتوسط، لكي تتبادل السلع فيما بينها.

و وجدت أسواق مثل سوق الشماعين، حيث كان يباع في هذا السوق كل ليلة من الشمع بمال كثير، وقد أدى ترف الناس إلى كثرة استعماله، وكان يعلق بهذا الفانوس في موسم الغطاس، فتصير رؤيته في الليل من أنزه الأشياء، وكان به في شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يشترى من الشموع الموكبية (٣٠٤).

ولقد استغل التجار المسيحيون الشرقيون فرصة انعقاد تلك الأسواق الموسمية، فقد كانوا يذهبون إلى كل مكان يتواجد فيه الحجاج المسيحيون، لكي يبيعوا لهم السلع الشرقية، إذ كانوا يقومون بافتراش الأرض ببضائعهم أمام الكنائس، وعندما يحين موعد عودة الحجاج إلى أوطانهم، كانوا يقضون الليل كله في المساومة مع الحجاج والتجار لبيع وشراء مختلف السلع، مثل المسابح والأحجار المعدنية، وقد صحب عمليات البيع والشراء ضجيج وصخب كبير (٣٠٥).

ويلاحظ أن الأسواق التي عقدت في المواسم كانت تظل منعقدة طوال النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل، وذلك يوضح مدى حرص التجار على الاستفادة بأكبر قدر ممكن من الأرباح المالية، وكذلك مهارة التجار المسيحيين الشرقيين في

عرض بضائعهم، وذلك من خلال اختيار الأماكن وطرق عرض هذه البضائع.

ومن ناحية أخرى ؛ حدث نوع من التزايد في عدد الأسواق بالمدينة الواحدة والتي شملت الشوارع والتلال والضواحي، بالإضافة إلى مراكز المدينة نفسها[٣٠٦]، وتعددت أنواع الأسواق نسبة لمن يملكها، فكانت توجد الأسواق الصليبية الرسمية، وهى تابعة للصليبيين أنفسهم ويديرها الملك الصليبي والأسواق الإقطاعية وهى تابعة للأمراء والبارونات، حيث تخصصت تلك الأسواق في بيع المواد الغذائية والسلع الضرورية للحياة [٣٠٧].

أما فيما يتصل بالأسواق في المناطق التي خضعت للسيطرة الصليبية[٣٠٨]، فقد تخصصت تلك الأسواق في بيع السلع والبضائع بالجملة [٣٠٩]، وتواجدت أسواق المدن التجارية بالقرب من ساحل البحر، كما أنشئت بالمدن الساحلية أسواق منظمات الفرسان الرهبان كالداوية والإسبتارية، غيرأنه حدث ازدهار للأسواق الإيطالية على حساب الأسواق الملكية [٣١٠].

وقد تأثر الصليبيون بالذوق الإسلامي في الطعام، وظهر ذلك واضحا عندما دعا أحد الصليبيين أسامة بن منقذ إلى بيته، وعندما أحضر الطعام، تردد أسامة في تناول الطعام، فلاحظ الصليبي هذا فأخبره أن كل طعام طيب، ولا يقرب لطعام الصليبيين، كما أن الذي طبخ له هذا الطعام طباخات أحضرهن من مصر، لطيب طبخهن، كما أخبر الصليبي أسامة أنه لا يقرب لحم الخنزير [٣١١].

ومن المرجح أن تغير الذوق عند الصليبيين في الطعام، أثر بدوره على حركة الاستهلاك ذاتها، والمتصور أن الصليبيين أقبلوا على أطعمة لم يكونوا يعرفونها في الغرب الأوربي نظراً لذلك التغير.

أما بالنسبة لأسواق المدن التي يسيطر عليها المسلمون، فكانت أكبر حجما من الأسواق الخاضعة للسيادة الصليبية، وتميزت هذه الأسواق بكثرة عدد الدكاكين، فكان الدكان الواحد مثل مائة دكان دون سواها، لأنه قد كثر الطلب على البضائع، وبرز من تلك الأسواق سوق البز العتيق والجديد، فكان أكثر تنظيما ونشاطا، كما كثرت في تلك الأسواق وجود الحمامات التي تولاها المغاربة، حيث كان يجتمع

اثنان منهم أو ثلاثة لحفر ذلك الحمام، ويستخدمون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا، وتم استخدام الحطب لكي يحمي الماء في قدور لكي يصير حماما، فيغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر (٣١٢).

ويلاحظ أن الأسواق التي وجدت في المدن التي يسيطر عليها المسلمون، وتميزت بكبر حجمها واتساع حوانيتها عن الأسواق التابعة للصليبيين، وإن كان يوجد مبالغة في قول المقريزي بالنسبة لمساحة الحانوت، وإن دل ذلك على فرق المساحة بين الأسواق الإسلامية والأوربية، كما انتشرت الحمامات التي أدارها المغاربة، والتي يعتقد أنهم أحضروا فكرتها معهم من المغرب، حيث كانت منتشرة عندهم.

ونتيجة لهذا الوضع النشط في التجارة بالمدن الساحلية الشامية، اختفت الأسواق المركزية وظهرت الأسواق المتخصصة حتى تلائم طبيعة الوضع في المنطقة، وقد حدث نوع من الاحتكار الملكي للأسواق في الميناء أو الكانتينا Cantina (٣١٣)، ولم يكن يميز الحياة اليومية سوى اجتماع عدة آلاف من التجار والمغامرين من المسلمين والصليبيين لعقد الصفقات من أجل أخذ أماكن في الموانى والخلجان والأسواق في الساحل الشامي (٣١٤).

و أدى انتشار الأسواق في المدن الساحلية إلى اجتماع سلمي بين كل من المسلمين والصليبيين وغيرهم من تجار المدن الأوربية التجارية، وذلك لأن مصالحهم التجارية اقتضت تقابل الطرفين بعيدا عن الحرب، حتى تتم بينهم المعاملات التجارية لتصريف منتاجتهم، ومن ثم تم انتقال العادات والتقاليد والأفكار بين الطرفين.

وثمة نوع من الأسواق يسمى سوق العسكر (٣١٥)، وهذا السوق انفردت به بلاد الشام خلال الحروب الصليبية، وكثيرا ما ورد ذكره خلال المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين على عهد صلاح الدين الأيوبي، وقد اقتضت إقامته الأحوال العسكرية، وفي المعارك التي دارت حول مدينة عكا، حيث شهدت تلك المدينة قيام معسكر للمسلمين، سار فيه نشاط تجاري جنبا إلى جنب مع النشاط

الحربي[٣١٦].

وقد استمر ذلك النوع من الأسواق حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي /السابع الهجري، فقد تم تحفيز القوات المملوكية التي كانت تشارك في فتح المدن الساحلية الشامية، بالمشاركة في الحياة الاقتصادية، وكذلك الوضع بالنسبة للحاميات التي ظلت في تلك المدن، فقد نمت تلك الأسواق حتى تخدم الجنود المهاجرين، حيث كان يتم صرف الإمدادات للجنود من تلك الأسواق من الطعام والدروع والأسلحة والملابس وغيرها من الاحتياجات الآخرى [٣١٧].

وقد اختلفت أساليب إدارة الأسواق في المدن على إمتداد الساحل الشامي، فالأسواق التي أقيمت في كل من عكا وصور وأنطاكية، اختلفت نظم إدارتها عن بعضها البعض، حتى إن الأوزان والمقاييس التي استخدمت داخل تلك الأسواق، كانت متباينة من مدينة إلى آخرى، بل أيضا اختلفت تلك المقاييس والموازين داخل السوق الواحد [٣١٨].

و جلب اختلاف جنسيات التجار المختلفة من جميع المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط، التجار معها ما يستعمل في أسواق بلادهم الأصلية من موازين ومقاييس، مما أدى إلى تنوع الموازين والمقاييس في الأسواق الواقعة بمدن الساحل الشامي، تبعا للمدن التي لها جاليات في الساحل الشامي.

و عدت تلك الأسواق بمثابة مراكز لتجمع عدد كبير من المعاصرين، إما كمشترين أو عملاء للسوق أو بقصد النزهة أو بإعتبارهم من أصحاب الحوانيت أو غيرهم من أرباب السوق، فكانت تلك الأسواق مركزاً إخبارياً واجتماعياً، تداول الناس بها الأخبار، وتناقشوا حول ما يشغلهم من أمور سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، وبذلك أصبح السوق مركزا لتكوين الرأي العام [٣١٩].

وظهرت في تلك الأسواق عدة ظواهر منها: أن بعض الناس كان يتجول في الأسواق ويقوم بانشاد الأشعار ويقوم بالغناء ابتغاء الربح [٣٢٠]، بل وجدت ظاهرة آخرى مهمة وهى سؤال بعض الناس الحاجة جهرا، وانتشرت تلك الظاهرة وقت المجاعات التي حلت بالمنطقة، بل إن بعض الناس رأى أن ارتكاب العيب سرا

أهون عليهم من طلب الحياة عن طريق الاستجداء في الأسواق، مما حدا بهم إلى السرقة[٣٢١]، وهو أمر لاحظه المؤرخ المجهول المعاصر للحملة الصليبية الثالثة.

وبالرغم من الثراء الذي تمتع به قطاع عريض من الناس، غير أن بعض الفئات الصغيرة لم تنل حظها من ذلك الثراء، لأنها لم تكن تشتغل بالتجارة، فأدى ذلك إلى تعرضهم للفقر وقت حدوث المجاعات أو غيرها من الأزمات الاقتصادية، فيخرجون إلى الشوارع للتسول وطلب المساعدة المالية.

وكان الفندق من المنشآت الإسلامية التي خصصت للأجانب لكي يستطيعوا التجمع فيه، من أجل ممارسة مصالحهم التجارية، وقد زاد التوسع في إنشاء هذه الفنادق كلما زاد الإقبال من التجار الأجانب في الحضور إلى الأراضي الإسلامية، وذلك بعد موافقة السلطات الإسلامية على بنائها[٣٢٢].

وقد تكونت تلك الفنادق من فناء مركزي مربع، يتألف من دور واحد أو دورين، وكانت البضائع والحيوانات قد خصص لها الطابق الأرضي، بينما التجار والسكان الأخرون في الغرف حول الفناء أو في الطابق العلوي، وقد حصنت بعض تلك الفنادق وخاصة التي وجدت في المناطق الريفية [٣٢٣].

وقد عد هذا الفندق عبارة عن ملتقى أو مكان لتجمع التجار من أجل مناقشة الشئون التجارية [٣٢٤]، وكان الفندق مركزاً لتجمع القوافل التجارية القادمة من المناطق المختلفة، حيث تم تجهيزه للسكن من أجل التجار المسافرين وذلك في الطابق العلوي ومأوى لحيواناتهم ومخزناً لبضائعهم في الطابق السفلي [٣٢٥].

ولم تكن الأسواق –على الرغم من انتشارها وزيادة عددها – وافية بكافة المعاملات التجارية التي تتم في الساحل الشامي، فكان لابد من وجود مبانٍ أخرى مثل الفنادق التي يتجمع بها التجار لعقد الصفقات التجارية الكبرى، والتي لم يكن من الممكن عقدها في الأسواق.

وكانت إدارة تلك الفنادق من قبل إدارة البلد الذي يوجد فيه، بالإضافة إلى أنه تم توزيع تلك الفنادق تبعا للجنسيات الموجودة، لأنها كانت تستخدم أيضا بالنسبة للحياة الخاصة للجاليات الأوربية أثناء وجودها في الساحل الشامي [٣٢٦]، وكانت

تلك الفنادق ظاهرة دائمة طويلة حتى الفتح النهائي لمدينة عكا (٣٢٧)، ويرجح أن الفندق قد وجد قبل نصف قرن من عصر عموري الأول (٣٢٨).

وقد ساعدت تلك الفنادق التجار الأوربيين على الاستقرار في المدن الساحلية الشامية، وكانت تلك الفنادق بمثابة عقارات ثابتة سمحت للتجار الأوربيين باستغلال بعض الزراعات التي كانت في نطاق الفندق، وقد أدى ذلك إلى عدم ابتعادهم كثيرا عن استقرارهم بالمدن الساحلية (٣٢٩)، وقد تطورت تلك الفنادق في شكلها، حتى أصبحت مباني ضخمة، عدت من أضخم الثغور حيث بدت في شكلها كالحصون المنيعة (٣٣٠).

ويلاحظ أن التجار الأوربيين كان لهم تأثير قوي في سير العمل بالفندق الذي تم بناؤه، واختلفت الإدارة من فندق إلى تبعا لنوع أو جنسية التجار الذين يقيمون في الفندق، حيث يتم تنفيذ القوانين التي تستخدم في بلادهم الأم، ولم يكتف التجار بذلك، بل قاموا بزراعة الأراضي التي يستطيعون شراءها أو تقع ضمن حيز الفندق حتى يجنوا من ورائها الأرباح المالية.

وقد لحق بالفندق تكوين شبه قضائي لحل المنازعات أو الخلافات التي تقع بين التجار في معاملاتهم التجارية (٣٣١)، ووجد بناء آخر يسمى دار الوكالة وهو بيت خدم كمخزن وبنك ومكان جلوس موثق العقود التجارية، وانتشر هذا النوع من البيوت في العصر الأيوبي، حيث تجمع الوكلاء بهذا البيت (٣٣٢).

وبالإضافة إلى الفندق وجدت منشأة تجارية آخرى في صورة القيسارية، وهى وحدة معمارية تشبه سوقاً مستقلا، تحيط بها من الخارج حوانيت، وفي الداخل صحن داخلي تحيط به حوانيت أيضا وحواصل، ويكون لها عدة مداخل، ويعلوها وحدات سكنية يسكنها في الغالب الصناع الذين يبيعون إنتاجهم بالحوانيت، وهذا ما يجعل القيسارية تختلف عن الخان أو الفندق، الذي يباع فيهما السلع الواردة من الخارج (٣٣٣).

وقد انتشر ذلك البناء عند المسلمين، حيث كان يتكون من حوانيت لتجار الصاغة واللؤلؤ وغيرهم، وفي ذلك البناء أيضا وجدت مساكن للتجار أصحاب تلك

الحوانيت في مسافات قريبة، وكانت تلك القيسارية عبارة عن تجمع لتجار السلعة الواحدة في مجموعات خاصة بهم (٣٣٤).

ويتضح لنا الفرق بين الفندق والقيسارية، فهما معا أماكن لتجمع التجار، غير أن الفندق مكان عام لتجار السلع المختلفة وللسكن فقط بالنسبة للتجار، أما القيسارية فقد تميزت بتجمع تجار السلعة الواحدة مع بعضهم، بالإضافة إلى أن القيسارية وجدت بها حوانيت هؤلاء التجار.

وقد عدت تلك التجمعات الصغيرة بالنسبة للتجار الأوربيين في الفنادق وغيرها من المباني، سببا في حدوث عملية تحول بطيئة من السوق الموسمي العادي للتجار المتجولين وتحوله إلى السوق الدائم، وبالتالي شعر التجار الإيطاليون بالفارق في الربح بين السوق الموسمي والسوق الدائم، مما أسرع بعد ذلك بعملية تطور القومينات الإيطالية، وأخذها لصورتها النهائية (٣٣٥).

كما ظهر الخان Khan في المدن الساحلية الشامية، وكلمة خان تترية معناها ملك أو رئيس يلقب بها كل الأمراء المالكيين للتتر، وهى من ألقاب الحضرة الشاهانية، ويعطى لقب خان في بلاد فارس لأصحاب رتب مختلفة من الضباط، وهو لذوي الرتب العالية، وهى مستعملة على الخصوص لروساء القبائل البدوية في بلاد فارس، وتكثر الخانات في الشرق في المدن ولا سيما الكبيرة منها، وهى عند الشرقيين بمثابة اللوكندات عند الغربيين ينزل فيها الغرباء، ويطلق الخان عند الأتراك والعرب على الفندق، وهو محل واقع على الطرقات تبيت فيه القوافل وأبناء السبيل، وهذه البنايات تكون غالبا على هيئة ساحة مربعة في داخلها ٣ صفوف من المماش بعضها مبني فوق بعض، وفيها غرف صغيرة مؤثثة ينزل بها المسافرون دون دفع أجرة، وقد بنى بعض هذه البنايات أفراد الأهالي وأكثرها بني بنفقة السلاطين (٣٣٦).

كما استخدم الخان - كبناء إسلامي- من جانب التجار المسلمين وغيرهم كوسيلة لتخزين بضائعهم، وتم توفير السكن الحر للتجار والأسعار الرخيصة من أجل المسافرين الآخرين، وقد كرست تكلفة أجور السكن والتخزين للإنفاق على

المساجد والكنائس والمدارس المنتشرة، وقد انتشرت تلك الخانات في منطقة الظهير الإسلامي في بلاد الشام وحتى وسط آسيا (٣٣٧).

ويرجح أن الفكرة المصاحبة لإنشاء الفندق الأوربي، كانت نابعة من أصول وجذور إسلامية وجدت قبل ذلك متمثلة في الخانات والقيساريات التي انتشرت في المناطق البرية الداخلية، وأخذها التجار الأوربيون وطوروها إلى فكرة الفندق الذي أصبح مركز تجمع لهم.

كما تم إنشاء مباني مساعدة في الأسواق، إلى جانب الحوانيت مثل بناء الأفران التي كانت تصنع الخبز، حيث كان الناس يتكالبون عليها عند سماعهم بخروج الخبز من تلك الأفران، فكان كل واحد من الناس يلح كي يكون هو أول من يأخذ الخبز، فترى البائع يغالي في ثمن الرغيف من أجل ربح أكثر (٣٣٨).

وإلى جانب ذلك وجدت الطواحين التي انتشرت بالأسواق، من أجل طحن الحبوب، ونظرا لأهميتها دخلت ضمن المناصفات التي كانت تتم بين المسلمين والصليبيين فيما يعقد بينهم من معاهدات (٣٣٩)، بل ونجد أن الأسواق وما تحويه من مبانٍ كانت أحياناً تقام قريبا من الأراضي الخصبة وأماكن استخراج المعادن، بل وقريبة أيضا من الجبال، ومثال ذلك أسواق مدينة بيروت التي كانت تقام بالقرب من الضياع (٣٤٠).

يلاحظ أن الأسواق تم تخطيطها في أماكن مركزية وخصبة من المواد الخام، مثل الضياع التي يأخذ منها الإنتاج مباشرة حتى يتم طرحه في السوق للبيع، وكذلك الوضع بالنسبة للجبال، وهى أماكن استخراج المعادن الخام، فيتم تصنيعها في الأسواق من أجل بيعها للتجار.

وروعيت مساحة الحوانيت والدكاكين التي تم بناؤها في الأسواق حسب المساحة، وكان يستدعى ذلك بناء مصطبة أمام كل حانوت يجلس فيه التاجر من أجل أن يقوم بعرض بضائعه عليها وذلك لتكون أمام المشترين لكي تدخل في مسألة العرض والطلب، وحتى يستطيع التاجر مناقشة زوار السوق عن بضائعه(٣٤١).

وأحيطت الأسواق وملحقاتها من الفنادق والخانات وغيرها بالأسوار العالية المحكمة، وبجانب تلك الأسواق الحواضر الكبرى، حيث تم بناء أماكن للعبادة وسط تلك الأسواق، من أجل أن يمارس الناس شعائر دينهم، وكانت توجد أسواق الحواضر السفلى لأنه يوجد أسفل تلك المدن وفي أعلاها الحواضر العليا[٣٤٢].

أثر الاستيطان الصليبي على التجار:

وقد تعددت مهام التجار داخل الأسواق وخارجها، فقد كانوا يصحبون القوافل القادمة من شرق آسيا، حتى تصل إلى العراق وبلاد الشام، بل أيضا يصحبون البضائع القادمة بحرا من الهند والصين، حتى ميناء جرها في البحرين، حيث يتم نقلها برا إلى العراق وبلاد الشام [٣٤٣].

هذا من الجانب المسلم، أما الجانب الصليبي، فقد كان التجار الأوربيون يأتون بأساطيلهم الكبيرة إلى السواحل الشامية، غير أن تلك السفن لم تكن تجارية فقط، بل سفنا حربية أيضا [٣٤٤].

وقد اكتسب التجار خبرة كبيرة في اختيار موقع المواني الصالحة لرسو السفن، وبين المدن التي ليس لها ميناء صالح لرسو السفن، ومن أمثلتها مدينة قيسارية، التي لم تتمتع بنفس المكانة التي تمتعت بها المدن الآخرى، ولذا فإن العلاقات الاقتصادية بينها وبين جيرانها من المدن التي سيطر عليها المسلمون أو الصليبيون [٣٤٥].

وامتد دور التجار الأوربيين ولاسيما الإيطاليين إلى مساعدة الصليبيين كثيرا في الاستيلاء على المدن الساحلية الشامية، وهو أمر سبق وأن أوضحناه من قبل ، ومنها عسقلان وبيروت وصيدا وغيرها من المدن الآخرى، بل إن التجار الإيطاليين كان لديهم أطماع كثيرة في مدن الساحل الشامي، وكانوا يقومون بمفاجأة القادة الصليبيين أثناء حصارهم للمدن الساحلية الشامية، وتدق بينهم فجأة طبول الحرب لمهاجمة تلك المدن من أجل الاستيلاء على خيراتها[٣٤٦].

ويتضح – مما سبق – أن التجار لم يقتصر دورهم على العمل بالتجارة داخل الأسواق فقط، بل أيضا قاموا بالمشاركة في الأعمال الحربية، ومثال ذلك ما نجده

عندما خاض الصليبيون المعارك ضد المسلمين وأبرزهم مساهمة التجار الإيطاليين، وذلك سعيا لما ينتج عن ذلك من أرباح تجارية كبيرة، وأيضا من أجل فتح أسواق جديدة لمنتجاتهم.

لقد تميز التجار المسلمون بأنهم تسيدوا – وبشكل تام – تجارة القوافل بين الظهير الشامي والمدن التي خضعت للحكم الصليبي، اعتمادا على خبرتهم السابقة، حيث قاموا باصطحاب القوافل التجارية الخاصة بهم من الظهير الأسيوي ووسط آسيا إلى مدينة دمشق، ومنها يتفرع الطريق إلى عدة طرق حيث تصل إلى الموانى الصليبية، وفي حالة عدم قدرة هؤلاء التجار على الحضور بأنفسهم، فإنهم كانوا يرسلون وكلاءهم لمصاحبة هذه القوافل [٣٤٧].

واكتسب التجار المسلمون خبرة في تجارة القوافل عبر الأراضي الصحراوية، ومن المرجح أن تلك خبرة مكتسبة على مر السنين، حيث عرفت الشعوب الشامية بخبرتها التجارية الطويلة، وخاصة في توصيل القوافل التجارية عبر الصحراء إلى موانى الساحل الشامي.

لذلك كان للتجار الإيطاليين المقيميين في الموانى الصليبية ضرورة من الاعتماد على التجار المسلمين الذين لعبوا دور الوسيط في نقل السلع من الشرق الأقصى إلى الموانى الصليبية، حيث قاد التجار المسلمون تلك القوافل التجارية عن طريق الخليج الفارسي، وطريق البحر الأحمر (القلزم)، أو الطريق البري القادم من شبة الجزيرة العربية، ومنها يتم تفرع هذه القوافل إلى مختلف المدن الساحلية الشامية[٣٤٨].

وعلى الرغم من الحروب المستمرة بين المسلمين والصليبيين، لم تنقطع العلاقة بين الظهير الشامي والساحل من عدة جهات، منها نقل السلع برا حتى الساحل عن طريق القوافل المستمرة، وأيضا اللقاء الذي جمع بين التجار المسلمين والصليبيين والاحتكاك المباشر الذي حدث بينهم، كما أنهم في سبيل التجارة كانت تخف أحيانا حدة العداء بين المتحاربين.

وقام التجار الإيطاليون أحيانا بالتوغل إلى الظهير الشامي، غير أنهم حين

كانوا يفعلون ذلك يتركون مجال القوة التجارية، ومن الأمور التفصيلية المهمة أن تجاراً من مدينة البندقية الذين كانوا يتاجرون في المدن الشامية الساحلية، وحصلوا على حق السفر، كانوا يرتدون اللباس المحلي لأهل الظهير من أجل سلامتهم، ومن أجل أن يقوموا بالتجول بحرية في تلك المناطق (٣٤٩).

وواجه التجار الأوربيون سواء كانوا بنادقة أو جنوية أو غيرهما من الجنسيات الأخرى عداءاً كبيراً من أهالي مدن الظهير الشامي مثل حلب ودمشق وحمص وغيرها من المدن، لأنهم عرفوا أن هؤلاء التجار قد ساعدوا القوات الصليبية في الاستيلاء على المدن الساحلية، بل اشتركوا في المذابح التي أقامها الصليبيون في تلك المدن.

و تعددت نشاطات التجار ومنها التجسس والعمالة لصالح الأعداء، ويرجع السبب في ذلك إلى حرية المرور التي كانت تعطى للتجار (٣٥٠)، وعلى سبيل المثال أن سكان مدينة باري Bari الإيطالية، والذين كانوا يسافرون إلى أنطاكية حيث ميناء سان سيمون (السويدية) من أجل التجارة، كانوا يرسلون الحجاج إلى كنيسة بداخل أنطاكية، من أجل التجسس على المسلمين (٣٥١).

ومع ذلك لم تنعدم قدرة المسلمين تماما أمام المد الأوربي في ظل الحروب الصليبية، حيث قاموا بمحاولات للمشاركة في التجارة الساحلية لبلاد الشام، بل أنهم بدأوا في الوصول إلى مناطق بعيدة ومنها الوصول إلى مدينة أطرابزندة، وهى الموجودة بآسيا الصغرى، على ضفة البحر المالح، فهي مدينة تعد متجرا للكثير من الأمم والجنسيات المختلفة سواء كانوا من المسلمين أو الروم (٣٥٢).

ولم يقتصر نشاط التجار المسلمون في المدن الصليبية فحسب بل قاموا بالمحاولات للخروج من دائرة القبضة الصليبية على المدن الساحلية، وممارسة تجارتهم الحرة مع مدن البحر الأبيض بعيداً عن السيطرة الصليبية.

ومن ناحية آخرى توجه التجار المسلمون إلى غرب البحر الأبيض، من أجل إعادة الصلات التجارية معه، ومنها بلاد الأندلس التي كانت غنية بالثروات المعدنية والزراعية وغيرها من الثروات الطبيعية الأخرى، حيث جذبت التجار إليها التجار

من بلاد الشام، وكذلك الوضع بالنسبة للتجار الأندلسيين، حيث أصبح التجار من كلا القطرين الشامي والأندلسي، يجوبون سواحل البلدين محملين بشتى أنواع البضائع[٣٥٣].

و عدت مدينة مونبلييه الفرنسية مدينة تجارية مزدهرة، وبعدت عن الساحل نحو فرسخين، قام التجار الشاميون بالذهاب إليها من أجل ممارسة التجارة مع أهلها، ومنها كانت البضائع الشرقية تصل إلى مختلف دول أوربا الغربية، وكذلك حدث العكس بالنسبة للبضائع الأوربية التي أحضرها تجار بلاد الشام معهم أثناء عودتهم من هناك إلى الساحل الشامي مرة آخرى [٣٥٤].

ومارس التجار المسلمون في مدن الساحل الشامي التجارة مع المدن الأوربية ذاتها، وذلك عن طريق السفر إليها، وبذلك يمكن القول إن هؤلاء التجار استطاعوا أن يحرزوا تقدماً في ممارسة النشاط التجاري، ولم ينتظروا وصول المدن الإيطالية إليهم بالسلع التجارية.

وخلال القرنين السادس والسابع الهجريين /الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، حدث تطور بالنسبة للتاجر، حيث حل التاجر المقيم محل التاجر المتجول في المدن التجارية الإيطالية والساحل الشامي، فعندما انتظمت الرحلات التجارية البحرية، وتأسست مستوطنات تجارية للمدن الإيطالية في الساحل الشامي، لم يعد ضروريا أن يسافر التاجر بنفسه لجلب السلع والمتاجر، إنما تم استخدام مندوبين عنه[٣٥٥].

وأدت تلك الأوضاع إلى زيادة انخراط الناس في ممارسة التجارة، بل اشتركت النساء وعائلات بأكملها في النشاط التجاري، فقد امتلكوا قوة اقتصادية كبيرة، وذلك في المدن الأوربية، فقد قامت النساء بممارسة التجارة بمفردهن بدون أزواجهن في حالة إذا ما كانوا متزوجين، بل إن الأرامل أيضا شاركن في التجارة، وذلك كله يصور الدور الذي لعبته المرأة أحياناً في النشاط التجاري [٣٥٦].

أما بالنسبة للجانب الإسلامي ؛ فمن مظاهر التطور التجاري من ناحية، أنه ظهرت في بعض مدن الظهير الإسلامي مثل مدينة دمشق، طوائف ثرية من التجار

وأشهرهم رجلان أحدهم يدعى نصر بن قوام (٣٥٧)، والآخر أبو الدر ياقوت مولى العطافي، وقد كانا من مياسيير التجار، حيث تنامت تجارتهم مع الصليبيين، حيث كان لهما أمناء من المقارضين يمارسون التجارة باسمهما، وكانت القوافل التابعة لهما صادرة وواردة ببضائعهما، وكان لهما شأن عند أمراء المسلمين والصليبيين كبير، وقد عملوا على افتداء أسرى المسلمين من أيدي الصليبيين (٣٥٨) على نحو يعكس مدى تأثيرهم في الحياة السياسية حينذاك.

وبالمقارنة بين التاجر المسلم والتاجر الإيطالي في الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين، نجد أن التاجر المسلم أعتمد في تنظيمه على العناصر الثلاثة التي سبق وأن أوضحناها في هذا الفصل، أما التاجر الإيطالي فقد عمل في شكل جماعات على هيئة شركات تجارية ذات رؤوس أموال كبيرة، مما أعطاه فرصة أكبر لتحقيق أرباح أكثر، وقد تسيد التاجر المسلم التجارة البرية في هيئة القوافل التي قدمت من وسط آسيا إلى سواحل بلاد الشام، بينما أمتاز التاجر الإيطالي بمهارته في التجارة البحرية، وتكوينه للأساطيل التجارية البحرية الكبيرة، والتي وصلت إلى مدن البحر المتوسط المختلفة، وحدث اختلاف بين التاجر المسلم والتاجر الإيطالي في المجال الحربي، وهو أن التاجر المسلم شارك بأمواله في تدعيم حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، بينما نجد أن التاجر الإيطالي لم يكتف بالمشاركة المالية فقط، وإمداده بالأساطيل البحرية التي شاركت في عملية الحصار البحري، بل شارك في الحملات الصليبية على مدن الساحل الشامي كمقاتل.

أثر الاستيطان الصليبي على المعاملات التجارية:

أدت تلك المقدمات إلى ظهور شركات التجارة العائلية Family Partner Ship، والتي مثلت أقدم التنظيمات التجارية التي عرفتها المدن الإيطالية، وبذلك استمدت المدن الإيطالية تلك القواعد الأساسية للحياة التجارية وتطورها في الغرب الأوربي، فكان الأخوة يعيشون في منزل واحد، ولهذا اتفقوا على استثمار أموالهم أو منتجاتهم في مشروع تجاري مشترك، وكان الأخوة الآخرون يعيشون فيما وراء البحار ويتبادلون فيما بينهم الصفقات التجارية (٣٥٩).

وكانت تلك الأحوال قد ساهمت بشكل كبير في تطور العمليات التجارية، واطمأن إليها التجار، مما جعلهم يشاركون أكثر بأموالهم في التجارة مع الأطمئنان إلى نظام التجارة الجديد.

و ظهرت تلك الشركات بمظهرها التجاري بشكل واضح في ألمانيا عام ١١٢٠م / ٥١٤ هـ، حيث أشترك دوق زارنجين Zahringen، مع أربعة وعشرين تاجرا كبيرا في تأسيس شركة تجارية عرفت باسم Freiburg Im Breisgou، وقد اتبع نفس النمط في مؤسسة برن Bern، وهى الأساس الذي عرف بعد ذلك بأسم تحالف عصبة الهانزا [٣٦٠].

ووجدت داخل القارة الأوربية تجمعات للتجار الألمان، الذين اشتغلوا بالتجارة في شمال القارة، وذلك يوضح وجود تنظيمات تجارية أخرى غير تلك التنظيمات التجارية الإيطالية التي سيطرت على تجارة البحر المتوسط، بل ونافستها من حيث مهارة تجارها، وقيمة الأموال المستثمرة في التجارة.

و استخدم التجار الإيطاليون عقوداً تجارية في نشاطهم التجاري بمدن الساحل الشامي، ومنها ما عرف باسم Commenda، أي بمعنى زمالة، وقد عدت من أبرز العقود التجارية التي استخدموها لتمويل مشاريعهم التجارية في مختلف مدن الساحل الشامي في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين- السادس والسابع الهجريين، وهى عقود تجارية رسمية تم توقيعها بين تاجرين، أولهما مقيم في المدينة الأم مثل البندقية أو جنوا، ويسمى ستانس Stans، ويساهم بكامل رأس ماله في المشروع التجاري، وثانيهما الشريك المسافر ويسمى Tactator، وهو لا يساهم بأي مبلغ في رأس المال، وإنما مهمته هى استثمار الأموال فيما وراء البحار بعمل تجاري يحدده له الطرف الأول، وكان الطرف الثاني يتحمل كل الأضرار والمخاطر الناتجة عن الرحلة، في حين كان الطرف الأول يتحمل مسئولية كافة الخسائر التي تلحق برأس المال، وبعد العودة كان يتقاسم الطرفان أرباح المشروع التجاري بينهما وفقا لنسب متفقا عليها مسبقا بين الطرفين [٣٦١]، ولا ريب في أن ذلك يؤكد تنامي أساليب التعامل التجاري في ذلك العصر.

وأثر نظام الشركات التجارية الأوربية على التجار المسلمين، مما أدى إلى مساهمتهم بأموال كثيرة في ممارسة التجارة، بالإضافة إلى استخدامهم الأمناء والمضاربين بأموالهم، نظرا لاتساع تجارتهما، وبذلك يكونوا قد شكلوا ما يشبه بالشركات الأوربية.

الخاتمة:

وهكذا احتل الساحل الشامي أهمية إستراتيجية كبرى، وتجلت تلك الأهمية في عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين السادس والسابع الهجريين /الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وقد حرص الصليبيون على انتزاع السيادة السياسية لذلك النطاق الحيوي من المسلمين، وظلوا طوال ما يزيد على ثلاثة وخمسين عاماً، يحاولون ذلك، وهى مدة تعادل ربع مدة تاريخهم في بلاد الشام، وحاول المسلمون استعادة مدنهم بعد معركة حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، و ارتبطت أهمية الساحل الشامي بأنه جسر الاتصال بين الصليبيين في بلاد الشام وبين وطنهم في أوربا، ولا يفهم الصراع الإسلامي الصليبي جيداً إلا من خلال ذلك النزاع على الساحل الشامي الحيوي.

- فكانت التجارة هي محور نشاط ذلك الساحل الشامي، وقد وجدت العديد من المراكز التجارية مثل عكا وصور وبيروت وطرابلس، وإن اختلفت أهميتها، وإن كانت عكا جوهرة الساحل إذ ازدهر شأنها، وقد كشفت المصادر التاريخية الصليبية لاسيما كتب الرحالة الأوربيين عن أهمية مدينة عكا، ولذلك فإن تاريخ الصليبيين في المنطقة لا يكتب – بصفة عامة – إلا من خلال مدينتين أساسيتين عكا على الساحل، وبيت المقدس في الظهير.

- ووجدت العديد من المنشآت التي ساعدت على ازدهار النشاط التجاري بالساحل الشامي مثل: الفندق والخان والقيسارية، وكلها دلت على ازدهار النشاط التجاري بصورة غير مسبوقة في تاريخ ذلك النطاق الجغرافي الحيوي في مرحلة العصور الوسطى، وتلك المنشآت التجارية توضح لنا أن العمائر الأثرية

التي عبرت عن ذلك العصر، وجدت في صورة قلاع وحصون - وقد تسيد أمرها الصليبيون - ومدارس وخوانق وزوايا، ثم من بعد ذلك تلك المؤسسات التجارية التي عبرت عن المنظومة التاريخية لذلك العصر.

- لا يمكن الفصل بين ازدهار التجارة في الساحل الشامي، وما حدث على نطاق عالمي لاسيما في البحر المتوسط في صورة ثورة تجارية، حيث شهدت منطقة الساحل الشامي ثورة تجارية ولم تشهد ثورة صناعية، وبالتالي فإن العديد من السلع دخلت في نطاق الاستهلاك الجماهيري مثل التوابل والحرير وغيرها من السلع، كما تضخمت رؤوس الأموال المستثمرة في عمليات النشاط التجاري، وجاء ذلك مصاحباً لاختراع البوصلة، ولا ريب ؛ أن كافة تلك التطورات كانت تعبر عن اقتراب المسافة بين الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية حيث فرضت التجارة نفسها حتى على الأعداء، فاضطروا إلى التعامل التجاري مع بعضهم البعض على الرغم من الصراع الديني والسياسي. وقد شكلت التجارة في الساحل الشامي عنصراً ضاغطاً على رجال السياسة والحرب لكي يحافظوا على المصلحة التجارية بين المسلمين والصليبيين، وكان النشاط التجاري بين المسلمين والصليبيين قد ازدهر في القرن ١٢م/٦هـ، ويلاحظ امتداده في القرن ١٣م / ٧هـ.

- لعبت الخبرة"التجارية المتوراثة"لدى سكان بلاد الشام الأصليين دوراً محورياً في نمو النشاط التجاري شرق البحر المتوسط في عصر الحروب الصليبية، ومما يذكر هنا ؛ إن الصليبيين قدموا إلى منطقة ذات عراقة في النشاط التجاري منذ عهود الفينيقيين الذين تسيدوا في التاريخ القديم تجارة البحر المتوسط، وعندما قدم تجار المدن الإيطالية مثل جنوة وبيزا والبندقية ليشاركوا في النشاط التجاري وينهوا دور المسلمين كوسطاء تجاريين، اتضح لنا الفارق الشاسع بين تجارة سكان البلاد الأصليين من المسلمين وتجارة الغزاة الصليبيين الذين قدموا من خلال مشروع لنهب منظم لثروات المنطقة على حساب سكانها الأصليين.

الهوامش :

(١) الأصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، مراجعة: محمد شفيق غربال، ط. القاهرة ١٩٦١ م، ص ٤٣.
(٢) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٧ م، ص ١٥.
(٣) جودة حسنين جودة، جغرافية آسيا الأقليمية، ط. الأسكندرية ١٩٩٠م، ص ٥٧.
(٤) فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان، ج١، ص ٤٨.
(٥) يسري الجوهري، جغرافية البحر المتوسط، ص ٢١٦.
(٦) أسامة سيد علي، الساحل الشامي في القرن الثاني عشر الميلادي، السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص ١٩٨.
(٧) المسعودي، التنبيه والأشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصادق، ط. بغداد ١٩٣٨م، ص ٥٢.
(٨) طه عبد العليم رضوان، في جغرافية العالم الإسلامي، ج٢، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص ٢٥٦.
(٩) فيليب رفلة و أحمد سامي مصطفى، جغرافية الوطن العربي، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص ٢٩٤.
(١٠) حسن سيد أحمد أبو العنين، دراسات في جغرافية لبنان، ط. بيروت ١٩٦٨م، ص٢١٥.
(١١) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٩.
(١٢) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ت. سعيد البيشاوي، ط. عمان ١٩٩٥م، ص ٣٤.
(١٣) محمود طه أبو العلا، جغرافية العالم العربي، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ٥٢٧.
(١٤) طه عبد العليم، المرجع السابق، ص ٢٩١.
(١٥) فيليب رفله، المرجع السابق، ص ٣٢.
(١٦) حسن سيد، دراسات في جغرافية لبنان، ص ١٩٢.
(١٧) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٣٣١.
(18) **Fulcher Of Chartres** , *A History Of The Expedition To Jerusalem (1095 - 1127)* , Trans. by Frances Rita Ryan , The University Of Tennessee , U.S.A 1969 , P 93.
(١٩) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط. ليدن ١٩٠٤م، ص ١٥٤.
(٢٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ط. بيروت ١٩٧٩، ص ٢٨٦.
(٢١) نفسه، ج٥، ص٥، ص٦.
(٢٢) الإدريسي، نزهة المشتاق في أختراق الأفاق، ج٢، ط. القاهرة، ص ٦٤٥.
(٢٣) يسري الجوهري، جغرافية البحر المتوسط، ص ٢١٩.
(٢٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص ٦٤٤.

(٢٥) أبي الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينود، وماك كوكين ديسلان، ط. باريس ١٨٣٠م، ص ٢٥٧.
(٢٦) نفسه، ص ٣٥٧.
(٢٧) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٣.
(28) **Burchard Of Mont Sion** (1280 A.D) , Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S , Vol.: XII , London 1896 , P 18 , P 19.
(٢٩) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج ١، ط. القاهرة ب.ت، ص ٣٧٥.
(٣٠) حسن سيد، دراسات في جغرافية لبنان، ص ٥٠٨.
(٣١) طه عبد العليم، في جغرافية العالم الإسلامي، ص ٢٩٧.
(٣٢) سامية عامر، الصليبيون في فلسطين، ط. القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٧.
(٣٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٥٢٥.
(٣٤) لويس شيخو، بيروت تاريخها وأثارها، ط. بيروت ١٩٢٥، ص ٦.
(٣٥) محمود جلال، الجبهة العربية في المشرق، ط. القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٢١.
(٣٦) ابن شاهنشاه، تقويم البلدان، ص ٢٤٩.
(٣٧) عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ط. بيروت ١٩٧٠، ص ٩، ص ١٠.
(38) **Joannes Phocas** , *The Pilgrimage Of Joannes Phocas In Holy Land (in the year 1185 A..D)* , Trans. By: Aubrey Stewart, London 1896 , P. 10.
(٣٩) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٠.
(٤٠) ابن شاهنشاه، المصدر السابق، ص ٢٤٣.
(٤١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٢.
(٤٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٠.
(43) **Richard Of Holy Trinity** , *Itinerary Of Richard I And Others To The Holy Land , (Formerly Ascribed To Geoffrey De Vinsauf)*, Trans. by A Classical Scholar & A Gentheman Well – Read In Mediaeval History , Cambridge 2001, P. 49.
(44) **Jacques de Vitry** , *History Of Jerusalem*, Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S , Vol: XI , London 1896 , P. 4.
(٤٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٣٣٢.
(46) **Burchard Of Mont Sion** , P. 93.
(٤٧) حسن عبد الوهاب حسين، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م، ص ٥٦.
(٤٨) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٤، ص ٤٢١.
(٤٩) حسن عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ٥٦.
(50) **Fetellus Palestine**"*Text Society*", Trans. by: Rev. James Rose Macpherson, P.P.T.S , Vol. V , London 1896 , P 47.

(51) **Burchard Of Mont**, P 4.

(٥٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤.

(٥٣) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٩.

(54) **Burchard Of Mont**, Op.Cit ,P 65.

(55) **Abbot Daniel**, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land, Annotated By: Sir Walter Besant. M.A.F.S.A., P.P.T.S, Vol. VI, London 1895, P. 9.

(٥٦) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٥٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ١٢٢.

(٥٨) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٠.

(59) **Holt. P.M**, *The Eastern Mediterranean Lands In The Period Of The Crusades*, Warminster, 1977, P. 9.

(60) **Prawer (J)**,"*Crusader cities*", **In:** *The Medieval city*, Britain, 1978, P. 180.

(61) **Frederic C. Lane**, *Venice A Maritime Republic*, Massachusetts1973, P.70.

(٦٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٣.

(63) **Leopold (A)**, *How To Recover The Holy Land*, England 2000, P.185.

(٦٤) عن الطرق الداخلية الموصلة داخل مناطق مدينة عكا، أنظر خريطة رقم ( )، ( ).

(٦٥) ابن جبير، الرحلة، ط. القاهرة ٢٠٠٠، ص ٢٤٠، ص٢٤١.

(66) **Johannes Phocas**, *A Brief Description Of The Holy Land*, Trans By: A. Atewart, P.P.T.S. Vol. V, Landon 1896, P. 11.

(٦٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٤١.

(68) **Phocas**, Op.Cit, P. 11.

(٦٩) حاتم الطحاوي، القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة كليـة الأداب، جامعة القاهرة، مجلد: ٥٨، عدد: ٤، ط. القاهرة، أكتوبر ١٩٩٨م، ص ٤٨٣، ص ٤٨٤.

(70) **Lamont (J)**,"*Fleet Operations in The First Genoese – Venetion War, (1264-1266)*", in Medieval and Renaissance Studies, Vol. 30, 1990, P. 1, P. 2.

(71) **Fetellus**, *Description Of The Holy Land*, Trans. by: J. R. Macpherson, P.P.T.S, Vol. V, London 1897, P. 49.

(72) **Theoderich**, *Description Of The Holy Places*, , Trans. By: Aubrey Stewart, P.P.T.S, Vol. V, London 1897, P. 60.

(٧٣) محمد مؤنس، الرحالة الأوربيون، ص ٤٥ – ص ٥١.

(74) **Tignor (U)** ,*"Life Among The Europeans In Palestine And Syria In The Twelfth And Theirteenth Centures"*, In Setton , Vol. IV, London 1977 , P. 6.

(٧٥) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ت. السيد الباز العريني، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٦١٠ .

(76) **Tignor (U)** , Op.Cit , P. 6.

(77) **Abulafia (D)** ,*"Trade And Crusade", In cross Cultural Convergences In The Crusader Period* , New York 1995 , P 15.

(٧٨) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ط. القاهرة ١٩٧٣، ص ١١٨.

(٧٩) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٦.

(٨٠) إرنست باركر، الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العريني، ط. بيروت ١٩٩٧، ص٦٩.

(٨١) جلال حسني سلامة، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ط. نابلس ١٩٩٨، ص ص٦١، ٦٢.

(82) **Jacques De Vitry** , *History Of Jerusalem* , Trans by A. Stewart, P.P.T.S , Vol. XI , London 1895 , P. 217.

(٨٣) جلال حسني، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ص ٦٩.

(84) **Dotson** , *Fleeet Operations* , P. 1.

(85) **Nicol (D)** , *Byzantium and Venice* , London 1995 , P. 217.

(٨٦) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ١، تحقيق محمد أمين، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص ٢٦٨، ص ٣٢٣.

(87) **Nicol (D)** , *Byzantium and Venice* , P 216.

(88) **Phillips (J)** ,*"The Latin East , 1098-1291", In: The Oxford Illustrated History Of The Crusades , New York 1995* , P. 128.

(٨٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٤٣٣.

(90) **Theoderich** , *Description Of The Holy Places* , P. 73.

(٩١) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٤٢.

(92) **Theoderich** , Op Cit , P. 73.

(٩٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(94) **Joannes Phocas** , *A Brief Description Of The Holy Land* , P. 10.

(٩٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٩٦) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في إسترجاع الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ت. سليم رزق الله، ط. بيروت ١٩٩١م، ص٢٤١.

(97) **Kamal (T)** , *The Saljuqs Of Syria During The Crusades , (463-549 A.H / 1070 – 1154 A.D) , Berlin 1997* , P. 183.

(98) **Fulcher Of Chartres** , *A History Of The Expeditions To*

Jerusalem (1095- 1127) , *Tennessee 1969* , P. 257.

(99) **Jacques De Vitry** , *History Of Jerusalem* , P. 16.

(١٠٠)ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص١٤٤.

(١٠١)القديس سابا ST.Sabas، ولد هذا القديس في مدينة قيسارية Caesarea، في كبادوكيا Cappadocia، وذلك في عام ٤٣٩ م، ويعد أحد البارزين من الجيل الأول من الرهبان، وقد صار قدوة لغيره على نحو صارت معه تعاليمه تؤثر تأثيرا كبيرا على الحركة الديرانية الشرقية، وعندما كان شابا صغيرا لازم القديس أيوثيميوس الكبير Eeithymius The Great ، وفي عام ٤٧٨ م أسس جماعة ديرانية في منطقة مقفرة فيما بين بيت المقدس Jerusalem والبحر الميت Dead Sea، وقد أزدهر أمرها من بعد ذلك بصورة كبيرةوفي عام ٤٩٣م، كانت له زعامة على كافة الرهبان في فلسطين الذين عاشوا حياة مشابهة لحياته التقشفية، وقد لعب القديس ساباس دورا نشطا في التاريخ الكنسي العام لتلك المرحلة، وأرسل مرتين من قبل بطريرك بيت المقدس إلى القسطنطينية، ووصلتنا سير حياته عن طريق كيريل البيساني Cyril Of Scythopolis، وقد قابل القديس ساباس وتأثر بتعاليمه، ويسمى دير ذلك القديس بإسم مارسابا Mar Saba، ويعد أحد أقدم الأديرة المعمورة في العالم، ويشغله رهبان تابعين للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وأدركت المنية القديس ساباس في عام ٥٣٢ م، ويلاحظ أن عيد الأحتفال به هو الخامس من ديسمبر انظر:

Attwater (D) , *The Penguim Dictionary Of Saints* , *New York* 1965 , P. 301.

دير القيس ساباس Monastry Of ST. Sabas، وقد ذكر عنه أنه بالغ الجمال والأتساع وأن هناك أكثر من ثلاثمائة من الرهبان اليونانيين، يعيشون ضمن جماعة ديرانية تخدم الرب والقيس. لمزيد من التفاصيل أنظر: **محمد مؤنس**، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩ – ١١٨٧ م، ص ٤٨، ص٤٩.

(١٠٢)**ميشيل بالار**،"الجمهوريات البحرية الإيطالية والتجارة في الشام وفلسطين"، ضمن كتاب: الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ت. هادية دجاني، شكيل برهان، ط. بيروت ١٩٩٤ م، ص ١٩١.

(١٠٣)**نفسه**، ص ١٩٢.

(104) **Dotson** , *Fleet Operation* , P. 2.

(١٠٥)**ميشيل بالار**، المرجع السابق، ص ١٩٢.

(١٠٦)**حسن عبد الوهاب**، تاريخ قيسارية الشام، ص٢١٤.

(١٠٧)**ابن الفوطي**، الحوادث الجامعة، ص ٤٧٣، ص ٤٧٤.

(108) **Theoderichs**, *Description of the Holy Land* , P.71.

(109) **Bouchier** , **M.A**, *Ashort History of Antioch* , *300B.C-A.D1268*, London 1921 , P. 287.

(١١٠)**روبرت لوبيز**، ثورة العصور الوسطى التجارية (٩٥٠–١٣٥٠م)، ت. محمود أحمد أبوصوة، ط. فاليتا ١٩٩٧م، ص١٢٦.

(١١١)**شاخت وبوزورث**، تراث الإسلام، ت. محمد زهير السمهوري، حسين مؤنس،

إحسان صدقي العمر، تحقيق شاكر مصطفى، مراجعة فؤاد زكريا، ط. الكويت ١٩٧٨م، ص ٣٣٣.

(112) **Joannes Phocas** , *A Brief Description* , PP. 9,10.

(١١٣) نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص ١٤٨.

(١١٤) موضي عبدالله السرحان، بيروت تحت الحكم الصليبي وعلاقتها بالمسلمين (٥٠٤-٦٩٠ هـ / ١١١٠- ١٢٩١م)، ط. الرياض ٢٠٠١ م، ص ٣٠٣.

(١١٥) نفسه، ص ٣٠٤.

(١١٦) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص ١٣٩.

(١١٧) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٨٤.

(١١٨) ابن العديم، زبدة الحلب، ص.ص ٤٢٣، ٤٢٤.

(١١٩) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ٨٨٤.

(١٢٠) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٤٢٣، ص ٤٢٤.

(١٢١) قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٤٨.

(١٢٢) نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص١٥١.

(123) **Burchard Of Mount Sion** , *A Description Of The Holy Land* , P. 16.

(١٢٤) لقد كان للنشاط الحرفي دوراً كبيراً في تقدم وإزدهار المدن الساحلية الشامية، وأحتل الصناع مكاناً رفيعاً وأحدثوا تطوراً عظيماً في مجال الصناعة، فهم الذين برعوا في صناعة السكر في العالم بعد أن نقلوه من مواطنه في الهند إلى بلاد فارس وغيرها واستخرجوا منه أصنافاً لم يكن لها مثيل، كما أنهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم، لمزيد من التفاصيل عن النشاط الحرفي، أنظر: أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ١٠٨.

(125) **Tignor (U)** , *Life Among The Europeans* , P. 14.

(١٢٦) حسن عبد الوهاب، أمن الطرق بين المسلمين والصليبيين، ص ١٠٠.

(١٢٧) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٨٢.

(١٢٨) محمود الحويري، الأوضاع الحضرية، ص١٣٠.

(١٢٩) هايد، المرجع السابق، ج١، ص ١٨٢.

(130) **Fulcher Of Chartres** , *A History Of The Expedition* , P. 131.

(١٣١) سليمان الخرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ط.عمان ١٩٩٣م، ص ١٦٨.

(١٣٢) ناصر خسرو، سفر نامه، ت. يحيى الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص ١٣.

(133) **Ziadeh (N)** , *Urban Life In Syria Under The Early Mamluks*, Beirut , 1953 , P. 139.

(١٣٤) محمد مؤنس، الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص ٩٩.

(١٣٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٨٠ ؛ وتقوم الطالبة نهى فتحي بإعداد دراسة عن إمارة طرابلس في القرن ١٣م / ٧هـ.

(١٣٦) قاسم عبده، فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٤٨.

(137) **Ziada (N)** , *Urban Life In Syria* , P. 134.

(١٣٨)**يوشع براور**، في تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤١.

(١٣٩)**مجهول**، تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زترشتين Zettersteen، ط. ليدن، ١٩١٩ م، ص ٢٣.

(140) **Jacques De Vitry** , *History Of Jerusalem* , P. 58.

(141) **Postan** , *Medieval Trade and Finance* , *Cambridge 1973* , P. 306.

(142) **Birenne (H)** , *Economic and Social History of Medieval Europe, New York 1933* , P. 32.

(143) **Lewis (A)** , *Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D.500-1100* , *New Jersey 1951* , P. 246.

(١٤٤)**سونيا هاو**، فى طلب لتوابل، ت. محمد عزيز رفعت، ط. القاهرة، ١٩٥٧، ص٢٧، ص٢٨.

(145) **Ohler (N)** , *The Medieval Traveller* , *Trans: Caroline Hillier,* Freiburg 1986 , P. 61.

(146) **Ohler (N)** , *Ibid* , P. 61.

(١٤٧)**أحمد حطيط**،"تجارة البحر الأحمر فى زمن صلاح الدين الأيوبى"، فى: دراسات إسلامية، ط. بيروت ١٩٩٥م، ص ١١٨.

(148)[1] **Salibi (K)** , *A History of Arabia* , *Delmar* , *1980* , P. 117.

(149) **Fulcher of Chartres** , *A History of the Expeditions to Jerusalem*, P.93.

(١٥٠)**عادل زيتون**، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م، ص ٢٢٥.

(١٥١)**حاتم الطحاوي**، الاقتصاد الصليبي، ص ٨٩.

(١٥٢)**هايد**، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٩١.

(١٥٣)**الكارم**: أول ما أختلف فيه الدارسون بشأن الكارم هو اسمه، فهناك من يرى أن تجارة الكارم تنسب إلى الكارمية، وهم طائفة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى وشرق أفريقيا في التوابل وما إليها من السلع الأخرى، أما عن بداية الكارم، فيمكن القول إن وجوده في العصر الفاطمي لم يعد محل خلاف، وقد بذل الفاطميون جهودا كبيرة لاجتذاب تجارة التوابل من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر، وأقاموا مراكز تجارية على الطريق إلى الهند، **لمزيد من التفاصيل أنظر**: **محمد عبد الغني الأشقر**، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، ط. القاهرة ١٩٩٩ م، ص ٢١، ص ٣٣.

(١٥٤)**أحمد حطيط**، تجارة البحر الأحمر، ص١٢٢.

(١٥٥)**نعيم زكي**، طرق التجارة الدولية، ص١٢٦.

(١٥٦)**حاتم الطحاوي**، الإقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص ٩٠.

(157) **Heaton (H)** , *Economic History of Europe* , *New York 1948*, P. 154.

(١٥٨)جعفر بن علي الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، تعليق محمود الأرناؤوط، ط. بيروت ١٩٩٩م، ص ٣١.

(١٥٩)ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، ط. القاهرة ١٩٨٥، ص ٦٨.

(١٦٠)ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، المجلد الثاني، ج ٢، ط. القاهرة ب.ت، ص ٢٠.

(161)**Bouchier. M.A** , *A History Of Antioch 300 B.C – A.D 1268, London 1921* , P. 287.

(١٦٢)جعفر الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٣٢.

(163)**Norbert** , *The Medieval Traveller* , P. 61.

(164) **Heaton (H)** , *Economic History Of Europe* , *New York 1948*, P.154.

(165)**Bunger (L)** ,*"Venice And The Crusade", In Setton* , *Vol. V, London* , *1985* , P. 401.

(١٦٦)علي السيد علي،"طريق القوافل: القاهرة – دمشق في عصر الحروب الصليبية"، ضمن ندوة طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ، ط. القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٤٦٣، ص ٤٦٤.

(167)**Louise Buenger** , *Op.Cit* , P. 401.

(١٦٨)ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٨٤.

(١٦٩)عادل زيتون، العلاقات الإقتصادية، ص.ص ٤٣، ٤٤.

(١٧٠)على السيد، طريق التجارة، ص ٤٨٢.

(١٧١)يوجد طريق يعرف بطريق الحرير، والذي عن طريقه كان يأتي الحرير من وسط أسيا إلى موانى الساحل الشامي، ويبد هذا الطريق من الشرق في من الصين، ويخترق بمنغوليا، وحوض نهر تاريم الصحراوي وفجاج وممرات أفغانستان وبلاد فارس، ثم من بعد ذلك يخترق بلاد الرافدين ومنها بلاد الشام، ومن هناك يتفرع الطريق إلى فرعين، أحدهما اخترق الأناضول إلى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، أو يتجه نحو موانئ البحر المتوسط، مثل عكا وصور وطرابلس، حيث وجدت هناك السفن التجارية الأوربية من أجل حمل المنسوجات الحريرية إلى جنوة والبندقية، وغيرها من موانئ القارة الأوربية، أنظر: أبو دلف المهلهل الخزرجي، الرسالة الثانية، تحقيق بطرس بولياكوف وأنس خالدوف، ط. موسكو ١٩٦٠م، ص ٣٧، علي أبو عساف، طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة (١٢)، العددان (٣٩)، (٤٠)، كانون الأول ١٩٩١م، ص ٧٢ – ص ٨٢، محمد مؤنس، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص ٣٢١، ص ٣٢٢.

(١٧٢)بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٥١.

(١٧٣)محمود سعيد عمران، المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس، ط. الإسكندرية ٢٠٠٣م، ص ١٢٨.

(174) **Buenger (L)** , *Venice And The Crusades* , P. 402.
(175) **Bauchier. M.A** , *A Short History Of Antioch* , P. 288.
(١٧٦)**ناصر خسرو**، سفر نامه، ت. يحيى الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص ٥٣.
(١٧٧)**ص.ى**،"الصناعة السورية زمن الحرب الصليبية"، المقتطف، ج: ٣، المجلد: ٣٣، ط. القاهرة ١ مارس ١٩٠٨م، ص ٢٠٣.
(١٧٨)**ابن سعيد المغربي**، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص ١٥٤.
(١٧٩)**أشتور**، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ت. عبد الهادي عبله، ط.دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٠٥.
(١٨٠)**رئيسة عبد الفتاح**، نابلس في العصر المملوكي، ط. نابلس ١٩٩٩م، ص١٢١.
(181)[1] **Postan** , *Medieval Trade and finance* , P. 306.
(182) **William Of Rubruck** , *The Journey Of William Of Rubruck*, London 1980 , P. 90.
(183) **Rey (E)** ,*"Les Colonies Franques De Syrie"*, Aus: XII – XIII , Paris 1883 , P. 208.
(184) **William Of Ruburk** , *The Journey* , P. 218.
(185) **William of Tyre** , *History of the deeds* , *Vol. One* , P. 377.
(١٨٦)**ص.ى**، الصناعة السورية، ص٢٠٢.
(187) **Fetelus** , *Description of the Holy Land* , P. 33.
(١٨٨)**على السيد**، العلاقات الإقتصادية، ص٦٠
(١٨٩)**رينييه غروسيه**، رصد التاريخ، ت. محمد خليل باشا، ب. ط، ب. ت، ص١٣٢.
(١٩٠)**جعفر الدمشقى**، الأشارة إلى محاسن التجارة، ص ٢٢، ص ٢٩.
(١٩١)**سليمان الخرابشة**، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص ١٦٣.
(192) **Zaida (N)** , *Urban Life In Syria* , P. 133.
(١٩٣)**ابن فضل الله العمري**، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٢٥
(١٩٤)**زكي النقاش**، العلاقات الإجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٤٨، ص ١٧٧.
(١٩٥)**أسامة بن منقذ**، الأعتبار، حرره: فيليب حتى، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص ١١٥.
(١٩٦)**ابن جبير**، الرحلة، ص ٢٤٠.
(١٩٧)تركز النشاط الزراعي في أيدي السكان الشاميين النصارى والمسلمين الخاضعين للصليبين في مدن الساحل الشامي، فقد قام الصليبيون بإستخدامهم في زراعة الأراضي الزراعية التي سيطروا عليها، وذلك لخبرة الأهالي بطبيعة تلك الأراضي، وكان عليهم أن يدفعوا نصف محاصيلهم إلى الصليبين، وكان يرأس هؤلاء الفلاحين المسلمين في القرى والمزارع، رجل مسلم نيابة عن السيد الصليبي، كوكيل لهذه الضيعة، **لمزيد من التفاصيل أنظر: حسن عبد الوهاب حسين**،"اللاتين والمسلمون واليونانيون في مملكة بيت المقدس اللاتينية"، ضمن كتاب: دراسات في التاريخ الإقتصادي للحروب الصيبية، ط. الأسكندرية ٢٠٠٢م، ص ٣١٣.

(١٩٨)السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الأسكندرية ١٩٦٦، ص ٣٨٠.
(١٩٩)موضي السرحان، بيروت تحت الحكم الصليبي، ص ٣٠١.
(٢٠٠)هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٨٨، ص ١٨٩.
(٢٠١)زكي النقاش، العلاقات ، ص ١٧٧.
(202)**Ziada (N)** , *Urban Life In Syria* , P. 132.
(٢٠٣)جلال حسني، عكا أثناء الحملة الثالثة، ص ١٣٥.
(٢٠٤)أبدى الصليبيون بما فيهم رجال الدين اللاتين إهتماما خاصا بالأراضي الزراعية، فعملوا على تقسيم أراضي القرية وتنظيمها في وحدات عرفت كل واحدة منها بإسم كاريوكا Crruca أو كاريوكات Carrucate، وقد اتضح ذلك من خلال قيام رجال الدين اللتين في كنيسة القيامة، بتقسيم أراضي مستوطنة راماتيس الجديدة وتنظيمها في كاريوكات، ولم تكن مساحة جميع الكاريوكات متساوية. انظر: سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. اسكندرية ١٩٨٩م، ص ٤٦٧، ص ٤٦٨.
(٢٠٥)نفسه، ص ٣٨٨.
(٢٠٦)حسن حلاق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ط. بيروت ١٩٨٩م، ص ٤٠١.
(٢٠٧)ابن بطوطة، الرحلة، تحقيق محمد السعيد الزيني، ط. القاهرة ب.ت، ص ٦٥.
(٢٠٨)الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق مهرن، ط. بطرسبرج ١٨٦٥م، ص ٢٠٠.
(٢٠٩)ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، الجلد الثاني، ج: ٢، ص ١٧٩.
(٢١٠)ناصر خسرو، سفر نامة، ت. يحيى الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص١١.
(٢١١)عرفت بلاد الشام عصر الحروب الصليبية بتوافر العديد من المسطحات المائية العذبة والمالحة التي عاشت فيها الأسماك منذ زمن بعيد من قبل مقدم الصليبين، ووجدت هناك العديد من مصايدها، ونذكر منها في هذا المجال نهر الفرات الذي نبع من أسيا الصغرى ومر قسم منه ببلاد الشام، ثم نهر الأردن الذي نبع من أسفل جبل الشيخ الغربي والجنوبي، ونهر اليرموك، وهم أهم روافد نهر الأردن، ثم نهر العاص الذي نبع من بعلبك بلبنان، ووقعت عليه مدينتا حمص وحماه، لمزيد من التفاصيل أنظر: محمد مؤنس،"الأسماك في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب: عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات، ط. القاهرة ٢٠٠٥م، ص ١٠٧.
(٢١٢)مجهول، الحرب الصليبية الثالثة ، ج: ١، ص ١٤٢.
(213)**Daniel** , *Pilgrimage Of the Russian Abbot Daniel In The Holy Land*, Trans by: Wilsa , P.P.T.S, Vol. VI, London , PP. 42 , 62.
(٢١٤)ابن بطوطة، الرحلة، ص ٧٥.
(٢١٥)الأنصار الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٠٥.
(216)**Frederic** , *Venice* , P. 72.
(217)**Jacques De Vitry** , *History Of Jerusalem* , PP. 92, 93.

(٢١٨)**السيد عبد العزيز سالم**، تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٨٦ م، ص١٦٧.
(٢١٩)**علي احمد السيد**، الخليل والحرم الابراهيمي عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص ٣٤٧.
(٢٢٠)**ناصر خسرو**، سفر نامه، ص١٩.
(٢٢١)**علي السيد**، طريق القوافل، ص ٤٨١.
(٢٢٢)**المقريزي**، نحل عبر النحل، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٠٩.
(٢٢٣)**علي أحمد**، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط. دمشق ١٩٨٩م، ٧٥.
(٢٢٤)**ابن البيطار**، الجامع لمفردات الأدوية، ج١، ص ١٦٧.
(٢٢٥)**مجهول**، الحرب الصليبية الثالثة، ج١، ص ١٧٤.
(٢٢٦)**ابن كثير**، البداية والنهاية، ج١٣، تحقيق أحمد أبو ملحم، ط. بيروت ١٩٩٧م، ص٢٦٠.
(٢٢٧)**ابن شاكر الكتبي**، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق احسان عباس، ج: ٢، ط. بيروت ١٩٧٤ م، ص ١٣٢.
(٢٢٨)**العظيمي**، تاريخ العظيمي، تحقيق علي سويم، ط. أنقرة ١٩٨٢م، ص ٥٣.
(٢٢٩)**النويري**، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٩، تحقيق محمد ضياء الدين، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ١١٩.
(٢٣٠)**العينـي**، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج١، تحقيق محمد أمين، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص ٣٢٣.
(٢٣١)**شافع بن علي**، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز عبدالله الخويطر، ط. الرياض ١٩٧٦م، ص ٧٣.
(٢٣٢)**العظيمي**، المصدر السابق، ص ٣١.
(٢٣٣)**محمد مؤنس**، الزلازل في بلاد الشام، ص ١٣٨.
(234)**Dotson** , *Fleet Operation* , P. 1.
(٢٣٥)**كلود كاهن**، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ت. أحمد الشيخ، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص ٢٤٧.
(236)**Mayer (H)** , *The Crusades* , Trans. by: John Gillingham , Oxford 1988 , P. 168.
(237)**Buenger (L)** , *Venice and The Crusades* , P. 412.
(٢٣٨)**كلود كاهن**، المرجع السابق، ص ٢٤٧.
(239)**Frederic** , *Venice* , P. 68.
(240)**Epstein (S)** , *Genoa and The Genoese 958 – 1528* , North Carolina , 1996 , P. 104.
(241)**Fredreric** , *Venice* , P. 80.
*(242)***Daniel (N)** , *The arabs And Mediaeval Europe* , London 1975,

P. 218.

(٢٤٣)سعيد عاشور، حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص٤٣٩.

(٢٤٤)هنري لامنس اليسوعي،"الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام"، مجلة المشرق، السنة ٢٠٠، العدد: ٢، ط. بيروت ١٩٢٢م، ص ١١١.

(٢٤٥)مارينو سانتو، كتاب الأسرار، ص ٥٦.

(246)**Raymond D Aguilers** , *Historia Francorum Qui Ceperunt Iherusalem*, Trans. by John Hill , Laurita L.Hill , Philadelphia 1968 , P. 88.

*(247)***Fulcher Of Chartres** , *A History Of The Expeditions* , P. 149.

(248)**Norman** , *The Arabs* , P. 220.

(٢٤٩)محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ١٣٥.

(250)**Postan** , *Medieval Trade* , P. 133.

(٢٥١)حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٤١.

(252)**Rey (E)** , *Les Colonies Franques* , P. 210.

*(253)***Paul (P)** , *The Templars* , London 1999 , P. 210.

(٢٥٤)عفاف صبرة، العلاقات بين المشرق والمغرب، ص ١٦٥.

(٢٥٥)علي السيد، العلاقات الإقتصادية، ص ١٦٥.

(256)**Abulafia (D)** , *Trade and Crusade* , P. 17.

(257)**Portner (P)** , *God Of Battles , Holy Wars Of Christianity And Islam* , London 1997 , P. 135.

(٢٥٨)محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص١٤٠.

(٢٥٩)ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٩٠.

(٢٦٠)العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٣١٦.

(٢٦١)كلود كاهن، الشرق والغرب، ص ١٧٢.

*(262)***Postan** , *Medieval Trade* , P 133.

(٢٦٣)ديسونيسيوس أجيوس، ريتشارد هيتشكوك، التأثير العربي في أوربا العصور الوسطى، ت. قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ٢٠٠٠، ص ٢٣.

(٢٦٤)جعفر الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٤٢.

(٢٦٥)شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ص ٣١٦.

(266)**Steven** , *Genoa And Genoese* , P. 101.

(٢٦٧)السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية، ط. الإسكندرية ١٩٨٤م، ص١٧١.

(٢٦٨)ابن بطوطة، الرحلة، ص ٢٩، ص ٣٠.

(269)**Raymond D Aguilers** , *Historia Francorum* , P. 120.

(270)**Seawulf** , *The Pilgrimage Of Saeulf , Trans. By Brownloe,*

P.P.T.S, Vol. IV , London 1896 , P. 7.

(٢٧١)سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص ٢٩٤.

(٢٧٢)مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠٦.

(273)**Mayer (H)** , *The Crusades* , P. 185.

(٢٧٤)علي السيد، طريق القوافل، ص ٤٨.

(٢٧٥)ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار، ص ٦٨.

(٢٧٦)كلود كاهن، الشرق والغرب، ص ١٧٣.

*(277)***Frederic** , *Venice* , P. 70.

(٢٧٨)محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ١١٠.

(279)**Reuven** , *Mongols And Mamluks* , P. 11.

(280)**Reuven** , *Ibid* , P. 201.

(٢٨١)سليمان الخرابشة، نيابة طرابلس، ص ١٦٧.

(282)**Edbury (P)** , *The Kingdom Of Cyprus And The Crusades, 1191-1374* , New York 1991 , P. 103.

*(283)***Ziada (N)** , *Urban Life* , P. 139.

(284)**George Bell and Sons** , *Select Historical Documents of the Middle Ages , Trans. By F. Handerson* , London , 1910 , PP. 336, 337.

(٢٨٥)عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٨٦.

(٢٨٦)مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١١٤.

(287) **Edbury (P)** , *The Kingdom Of Cyprus* , P. 104.

(288)**Ziada (N)** , *Urban Life* , P. 134.

(٢٨٩)عطية القوصي،"مصر الفاطمية"، ضمن كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، تحرير: رؤوف عباس، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٦٣.

(٢٩٠)الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ط. القاهرة ١٩٤٦م، ص ١١.

(٢٩١)ناصر خسرو، سفر نامه، ت. يحيى الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص ١٣، ١٤.

(٢٩٢)المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج٣، ص ١٧٢.

(٢٩٣)مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص ٦٨.

(٢٩٤)خالد عزب،"أثر الحسبة في التنظيم العمراني للمدينة الإسلامية"، مجلة أفاق الثقافة والتراث، السنة: ٢، العدد: ٨، ط. القاهرة مارس ١٩٩٥م، ص ١٧.

(295)**Anonymous** , *The City Of Jerusalem* , Trans. By: C.R. Conder, P.P.T.S, Vol. VI , London 1894 , P. 7.

(296) **Tignor (U)** , *Life Among The Europeans* , P. 25.

(٢٩٧)خالد عزب،"أثر الحسبة في التنظيم العمراني"، ص ١٨.

(298)**Boase (A)** , *Jerusalem In The Time Of The Crusades*, London 2001 , P 150.

(299) **Phillips (J)** , *The Latin East* , P 119.

(300) **Benvenisti** , *The Crusaders In The Holy Land* , Jerusalem 1976, P. 55.

(٣٠١) **محمد مؤنس**،"الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية"، مجلة الدارة، العـدد ٣، ط. الرياض ١٩٩٠م، ص ٧٣.

(302) **Norbert** , *The Medieval Traveller* , P. 62.

(٣٠٣) **علي حسين**، النشاط التجاري في شبة الجزيرة العربية أواخـر العـصور الوسـطى (١٢٥٠-١٥١٧)، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص ٥٦.

(٣٠٤) **محمد عبد الستار**، المدينة الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص ٢٥٢.

(٣٠٥) **محمد مؤنس عوض**، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، ط. القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢٧، ص ٢٨.

(٣٠٦) **عبد الحافظ عبد الخالق يوسف**، الأسواق في المناطق الصليبية في بلاد الـشام فـي الفترة من (١٠٩٩- ١٢٩١م / ٤٩٥- ٦٨٧ هـ)، رسالة ماجـستير، كليـة الأداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٩م، ص ٧٤.

(٣٠٧) **المقريزي**، المواعظ والأعتبار، ج٣، ص ١٧٥.

(٣٠٨) **عبد الحافظ عبد الخالق يوسف**، المرجع السابق، ص ٧٣.

(309) **Adrian** , *Jerusalem* , P 143.

(٣١٠) **علي السيد**، طريق القوافل، ص ٤٦٠.

(311) **Buenger (L)** , *Venice* , P 380.

(٣١٢) **علي السيد**، المرجع السابق، ص ٤٦٠.

(٣١٣) **حاتم الطحاوي**، القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة كليـة الأداب، جامعة القاهرة، مجلد: ٥٥، عدد ٤، ط. القاهرة أكتوبر ١٩٩٨م، ص ٤٨٤.

(٣١٤) **أسامة بن منقذ**، الاعتبار، ص ١٧٠.

(٣١٥) **المقريزي**، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، تحقيق محمد عبد القـادر عطـا، ط. بيروت ١٩٩٧م، ص ٢٠٨.

(316) **Prawer (J)** , *Crusader Cities* , P. 191.

(317) **Partner (P)** , *God Battles* , P. 133.

(٣١٨) **المقريزي**، السلوك، ج١، ص ٢٠٧.

(٣١٩) **محمود الحويري**، الأوضاع الحضارية، ص ١٤٤.

(320) **Marvin (I)** , *Muslim Cities* , P. 14.

(321) **Holt** , *The Eastern Mediterranean* , P. 10.

(٣٢٢) **قاسم عبده قاسم**، عصر سلاطين المماليك (التـاريخ الـسياسي والاجتمـاعي)، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص ٢٣٦.

(٣٢٣) **ابن خلكان**، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، ج١، تحقيـق إحـسان عبـاس، ط. بيروت، ١٩٦٨م، ص ١٥٦.

(٣٢٤) **مجهول**، الحرب الصليبية الثالثة، ج١، ص ١٧١.

(٣٢٥) **صبحي لبيب**، الفندق، ص ٢٩١.

(326) **Constable (O)** , *Funduq , Fondaco And Khan In The Wake Of Christian Commerce And Crusade* , Dumbarton 2001 , P. 148.
(327) **Rey (E)** , *Les Colonies* , P. 191.
(328) **Goitein** , *The Jewish Communities* , Vol. IV , P. 29.
(٣٢٩)كلود كاهن، الشرق والغرب، ص ١٧٣.
(330) **Constable (O)** , Op. Cit. P. 152.
(331) **Patterson (R)** , *The Early Existence Of The Funda And Catena In The Twelfth Century Latin Kingdom Of Jerusalem,* Speculum, Vol.: XXXIX , Massachusetts , 1964 , P. 474.
(٣٣٢)حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص ٩٨.
(٣٣٣)صبحي لبيب، الفندق ظاهرة سياسية اقتصادية قانونية، ضمن كتاب: مصر وعالم البحر المتوسط، لرؤوف عباس، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص ٢٩٢.
(٣٣٤)جان ريشار، تكوين مملكة القدس اللاتينية وبنيتها، ضمن كتاب: الصراع الإسلامي الفرنجي، لهادية دجاني، ط. بيروت ١٩٩٤م، ص ١٥٣.
(335) **Goitein** , *The cairo Geniza* , Vol. IV , P. 26.
(٣٣٦)محمد محمد أمين وليلى علي إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (١٢٥٠- ١٥١٧م / ٦٤٨- ٩٢٣ هـ)، ط. القاهرة ، ب.ت، ص ٩٢.
(٣٣٧)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١١٩.
(٣٣٨)حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص ٩٩.
(٣٣٩)بطرس البستاني، دائرة المعارف، ج٧، ط. بيروت، ب.ت، ص ٣٣٤.
(340) **Constable (O)** , *Funduq* , P. 148.
(٣٤١)مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ج١، ص ١٦٨.
(٣٤٢)ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص ٥٠.
(٣٤٣)ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، المجلد:٢، ج ٢، ص ٧.
(٣٤٤)قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٢٣٢.
(٣٤٥)ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٠.
(٣٤٦)محمود قمر، دور البحرين في الملاحة والتجارة البحرية من صدر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص ٧٢
(347) **Fulcher Of Chartres** , *A History Of The Expedition* , P. 238.
(٣٤٨)حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام، ط. الأسكندرية ١٩٩٠م، ص ٢٤٤.
(349) **Fulcher Of Chartres** , *A History Of The Expedition* , P. 196.
(٣٥٠)علي السيد، طريق القوافل، ص ٤٥٧.
(٣٥١)حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص ٩٤.
(٣٥٢)شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ص ٣٣٤.
(٣٥٣)كلود كاهن، الشرق والغرب، ص ١٤٢.
(354) **Orderic Vitalis** , *The Ecclesiastical History Of Orderic Vitalis,*

Vol. IV , Trans By: Marjorie Chihnall , Oxford , 1973 , P. 57.

(٣٥٥)**الإدريسي**، نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، ج٢، ب.ط، ب.ت، ص ٩٠٧.

(٣٥٦)**علي أحمد**، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط. دمشق ١٩٨٩م، ص ٧٨.

(357) **Benjamin Of Tudela** , *The Itinerary Of Benjamin Of Tudela, Travels In The Middle Ages* , Trans By: Michael A. Signer & Marcus Adler , California 1993 , P. 60.

(٣٥٨)**عادل زيتون**، العلاقات الاقتصادية، ص ٣٥، ص ٣٦.

(359) **Powell (J)** , *The Role Of Women In The Fifth Crusade* , In: In The Horns Of Hattin , Jerusalem , 1992 , PP. 296 , 297.

(٣٦٠)لم يعثر لنصر بن قوام على ترجمة، غير أن ابن شداد ذكر أن نصر بن قوام قام بإنشاء قناة في مدينة دمشق، أنظر: **ابن شداد**، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج٢، تحقيق: سامي الدهان، ط. دمشق ١٩٦٢م، ص ٢١.

(٣٦١)**ابن جبير**، الرحلة، ص ٢٤٤.

(٣٦٢)**عادل زيتون**، العلاقات الاقتصادية، ص ٣٦.

(٣٦٣)**روبرت لوبيز**، ثورة العصور الوسطى، ص ١٤٠.

(٣٦٤)لمزيد من التفاصيل أنظر: **عادل زيتون**، العلاقات الاقتصادية، ص ٣٨.

المصادر والمراجع

المصادر العربية المطبوعة:-

١. ابن الأثير (أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بان الأثير الجزرى الملقب بعز الدين المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، تحقيق أبى الفداء عبد الله القاضي، و محمد يوسف الدقاق، ط. بيروت ١٩٩٨م.

٢. ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، تحقيق محمد السعيد محمد الزينى، ط. القاهرة ب.ت.

٣. ابن البيطار (ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقى المعروف بابن البيطار)، الجامع لمفردات الأدوية و الأغذية، ط. القاهرة ب.ت.

٤. ابن جبير (أبى الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسى ٥٤٠هـ-٦١٤هـ/١١٤٥م/١٢١٧م)، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق محمد زينهم، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.

٥. ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)، صورة الأرض، ط. القاهرة ب.ت.

٦. ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ/١٢١١-١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٦٨م.

٧. ابن سعيد المغربي (أبى الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي)، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط. بيروت ١٩٧٠م.

٨. ابن شاكر الكتبى (محمد بن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ه)، فوات الوفيات و الذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٧٤م.

٩. ابن العديم (كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم الحلبي

الحنفي المتوفى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق خليل منصور، ط. بيروت ١٩٩٦م.

١٠. ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى ١٣٠١/١٣٤٩م-٧٠١/٧٤٩ه)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (ممالك مصر و الشام و الحجاز و اليمن)، تحقيق أيمن فؤاد السيد، ط. القاهرة ١٩٨٥م.

١١. ابن الفوطى (كمال الدين أبى الفضل عبد الرزاق بن الفوطى البغدادي)، الحوادث الجامعة و التجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، ط. بغداد ١٩٣٢م.

١٢. ابن كثير (أبى الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية و النهاية، تحقيق الشيخ على محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، وضع حواشيه أحمد أبو ملحم، على نجيب عطوى، فؤاد السيد، مهدى ناصر الدين، ط. بيروت ١٩٩٧م.

١٣. ابن الوردي (زين الدين عمر بن الوردي)، تتمة المختصر في أخبار البشر (أو تاريخ بن الوردي)، تحقيق السيد محمد مهدي سليمان، ط. النجف الأشراف ١٩٦٩م.

١٤. أبو الفداء (السلطان الملك المؤيد عماد الدين أسماعيل بن الملك الأفضل نورالدين علي بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة)، تقويم البلدان، تحقيق رينود، ماك كوكين ديسلان، ط. باريس ١٨٤٠م.

١٥. الإدريسى (أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسى من علماء القرن السادس الهجري)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، القاهرة ب.ت.

١٦. أسامة بن منقذ (مؤيد الدين أبو المظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيرزى)،

كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، ط. القاهرة ٢٠٠١م.

١٧. الأصطخري (ابن أسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري (المعروف بالكرخي)، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، ط. القاهرة ١٩٦١م.

١٨. الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٨٠م.

١٩. الحنبلي (قاضي القضاة أبو اليمن القاضي مجير الدين الحنبلي)، الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل، ط. القاهرة ١٩٦٨م.

٢٠. الدمشقي (شمس الدين أبى عبد الله محمد أبى طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي شيخ الربوة)، نخبة الدهر في عجائب البر و البحر، تحقيق مهرن ط. بطرسبرج ١٨٦٥م.

٢١. الدمشقي (أبو الفضل جعفر بن على الدمشقي من علماء القرن السادس الهجري)، الإشارة إلى محاسن التجارة و غشوش المدلسين فيها، تحقيق محمود الأرناؤوط، ط. بيروت ١٩٩٩م.

٢٢. الشيرزي (عبد الرحمن بن نصر الشيرزي)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ط. القاهرة ١٩٤٦م.

٢٣. العظيمي، تاريخ العظيمي، تحقيق علي سويم، أنقرة ١٩٨٢م.

٢٤. العيني (بدر الدين محمود العيني المتوفى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ آهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

٢٥. المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي جويه، ط. ليدن ١٩٠٤م.

٢٦. المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ط. القاهرة ١٩٣٤م.

٢٧. النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ٦٧٧/٧٣٣هـ/١٢٧٨-١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الآداب، تحقيق محمد محمد أمين، محمد حلمي محمد، ط. القاهرة ١٩٩٢م.

٢٨. اليعقوبي (أحمد بن أبو يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي المتوفي سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م)، كتاب البلدان، ط. النجف الأشرف ١٩١٨م.

٢٩. بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ت. يحيى الخشاب، ط. بغداد ١٩٤٩م.

٣٠. مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ت. حسن حبشي، ط. القاهرة ب.ت.

٣١. مؤرخ مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زترشتين K , V , Zettersteem، ط. ليدن ١٩١٩م.

٣٢. ناصر خسرو علوي، سفر نامه، ت. يحيي الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م.

٣٣. ياقوت الحموي (الشيخ الإمام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي)، معجم البلدان، ط. بيروت ١٩٧٩م.

المراجع الأجنبية: -

34. Burchard Of Mont Sion (1280A.D) , Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S , Vol: XII , London 1896.

35. Fetellus , Description of The Holy Land , Trans. R. J. Macpherson, P.P.T.S , Vol: V , London 1896.

36. Frederic C. Lane , Venice A History Republic , Massachusotts 1973.

37. Fulcher Of Chartres , A History Of The Expedition To Jerusalem (1095-1127) , Trans. by Frances Rita Ryan , The University Of Tennessee , U.S.A 1969.

38. Jacques De Vitrys, History Of Jerusalem, Trans. by Aubrey

Stewart , P.P.T.S , Vol: XI , London 1896.

39. Joannes Phocas, The Pilgrimage Of Joannes Phocas In The Holy Land (in the year 1185 A..D) , Trans. by Aubrey Stewart , London 1896.

40. Richard Of Holy Trinity , Itinerary Of Richard I and Others To The Holy Land , (Formerly Ascribed To Geoffrey De Vinsauf) Trans. by A Classical Scholar And A Gentheman Well – Read In Medieval History , Cambridge 2001.

41. Theoderichs , Description Of The Holy Places, Trans. by Aubrey Stewart, London 1896.

المراجع العربية:-

٤٢. أحمد حطيط، تجارة البحر الأحمر في زمن صلاح الدين الأيوبي، دراسات إسلامية، ط. بيروت ١٩٩٥م.

٤٣. أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

٤٤. السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الإسكندرية ١٩٦٦م.

٤٥. جلال حسني سلامة ، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ط. نابلس ١٩٩٨م.

٤٦. جودة حسنين جودة، جغرافية آسيا الأقليمية، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م.

٤٧. حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ط. القاهرة ١٩٩٩م.

٤٨. حسان حلاق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ط. بيروت ١٩٨٩م.

٤٩. حسن عبد الوهاب حسين، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، ط.

الإسكندرية ١٩٩٠م.

٥٠. رئيسة عبد الفتاح العزة، نابلس في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، ط. نابلس ١٩٩٩م.

٥١. زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية بين العرب و الفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨م.

٥٢. سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ط. عمان ١٩٩٣م.

٥٣. طه عبد العليم رضوان، في جغرافية العالم الإسلامي، ط. القاهرة ١٩٨٩م.

٥٤. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق و الغرب في العصور الوسطي، ط. دمشق ١٩٨٠م.

٥٥. عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق و الغرب (علاقة البندقية بمصر و الشام في الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م)، ط. القاهرة ١٩٨٣م.

٥٦. علي أحمد، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس و حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط. دمشق ١٩٨٩م.

٥٧. علي أحمد السيد، الخليل و الحرم الإبراهيمي عصر الحروب الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م/٤٩٢-٥٨٣هـ)، ط. القاهرة ١٩٩٨م.

٥٨. علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين و الصليبيين، ط. القاهرة ١٩٩٦م.

٥٩. علي حسين السليمان الناصر، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطي (١٢٥٠-١٥١٧م)، ط. القاهرة ١٩٨٠م.

٦٠. فيليب رفلة وأحمد سامي مصطفى، جغرافية الوطن العربي، ط. القاهرة ١٩٦٨م.

٦١. لويس شيخو، بيروت تاريخها وآثارها، ط. بيروت ١٩٢٥م.

٦٢. محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق (من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري)، ط. القاهرة ١٩٦٥م.

٦٣. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٩٩م.

٦٤. محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩- ١١٨٧م)، ط. القاهرة ١٩٩٢م.

٦٥. محمد محمد أمين وليلى علي إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)، ط. القاهرة ب.ت.

٦٦. محمود جلال الدين الجمل، الجبهة العربية في المشرق، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

٦٧. محمود سعيد عمران، المغول و الأوربيون و الصليبيون و قضية القدس، ط. الإسكندرية ٢٠٠٣م.

٦٨. محمود طه أبو العلا، جغرافية العالم العربي، ط. القاهرة ١٩٧٣م.

٦٩. محمود قمر، دور البحرين في الملاحة و التجارة البحرية من صدر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، ط. القاهرة ١٩٩٧م.

٧٠. محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر من الميلاد، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

٧١. موضي عبد الله السرحان ، بيروت تحت الحكم الصليبي و علاقتها بالمسلمين (٥٠٤-٦٩٠هـ/١١١٠-١٢٩١م)، ط. الرياض ٢٠٠١م.

٧٢. نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية و محطاتها بين الشرق و الغرب (أواخر العصور الوسطى)، ط. القاهرة ١٩٧٣م.

٧٣. يسري الجوهري، جغرافية البحر المتوسط، ط. الإسكندرية ١٩٨٤م.

المراجع المترجمة:-

٧٤. أ. أشتور، التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للشرق الأوسط في العصور

الوسطي، ت. عبد الهادي عبله، مراجعة: أحمد غسان سبانو، ط. دمشق ١٩٨٥م.

٧٥. أرنست باركر، الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العريني، ط. بيروت ١٩٦٧م.

٧٦. بورشارد من دير جبل صهيون، وصف الأرض المقدسة، ت. سعيد عبد الله البيشاوي، مراجعة: مصطفى الحياري، ط. عمان ١٩٩٥م.

٧٧. جان ريشار، الصراع الإسلامي الفرنجي علي فلسطين في القرون الوسطي، ت. هادية دجاني و شكيل برهان الدجاني، تكوين مملكة القدس اللاتينية و بنيتها، ط. بيروت ١٩٩٤م.

٧٨. روبرت لوبيز، ثورة العصور الوسطي التجارية (٩٥٠-١٣٥٠م)، ت. محمود أحمد أبو صوة، تقديم: صلاح الدين حسن السوري، ط. فاليتا ١٩٩٧م.

٧٩. ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العريني، ط. بيروت ١٩٨٠م.

٨٠. سونيا هاو، في طلب التوابل، ت. محمد عزيز رفعت، مراجعة: محمود النحاس، ط. القاهرة ١٩٥٧م.

٨١. شاخت وبوزورت، تراث الإسلام، ت. محمد زهير السمهوري و آخرين، تعليق: شاكر مصطفي، مراجعة: فؤاد زكريا، ط. الكويت ١٩٧٨م.

٨٢. ف-هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي، ت. أحمد محمد رضا، مراجعة: عز الدين فوده، ط. القاهرة ١٩٨٥م.

٨٣. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ت. جورج حداد وعبد الكريم رافق، ط. بيروت ١٩٥٨م.

٨٤. كلود كاهن، الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية، ت. أحمد الشيخ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

٨٥. مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة و الحفاظ عليها، مراجعة: بلليغرنيور ونكاليا و سمير الخادم، ت. الأب سحيم رزق الله، ط. بيروت ١٩٩١م.

٨٦. يوشع براور، في تاريخ الحروب الصليبية (المملكة اللاتينية في بيت المقدس)، ط. القدس ١٩٧٢م.

الدوريات العربية: -

٨٧. حاتم الطحاوي،"القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية (قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس)"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد: ٤، مجلد: ٥٨ ١٩٩٨م.

٨٨. خالد عزب،"أثر الحسبة في التنظيم العمراني للمدينة الإسلامية"، مجلة أفاق الثقافة و التراث، السنة: الثانية، العدد: ٨، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

٨٩. ص.ى،"الصناعة السورية زمن الحروب الصليبية"، المقتطف، الجزء: ٣ من المجلد ٣٣، ط. القاهرة ١٩٠٨م.

٩٠. علي السيد علي،"طريق القوافل القاهرة – دمشق في عصر الحروب الصليبية"، ندوة طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي علي مر عصور التاريخ، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.

٩١. هنري لامنس اليسوعي،"الصليبيون و مكتبة طرابلس الشام"، مجلة المشرق، السنة: ٢٠، العدد: ٢، ط. بيروت ١٩٢٢م.

٩٢. محمد مؤنس عوض،"الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية (٥٤١-٥٦٩هـ) (١١٤٦-١١٧٤م)"، مجلة الدارة، العدد: ٣، السنة: ١٦، ط. الرياض ١٩٩٠م.

الرسائل العلمية:-

٩٣. أسامة سيد علي أحمد، الساحل الشامي في القرن الثاني عشر الميلادي /

السادس الهجري، رسالة ماجستير، كلية الأداب، جامعة عين شمس، ط. القاهرة ١٩٩٢م.

٩٤. عبد الحافظ عبد الخالق يوسف، الأسواق في المناطق الصليبية في بلاد الشام في الفترة من (٤٩٥- ٦٨٧ هـ / ١٠٩٩- ١٢٩١م)، رسالة ماجستير، كلية الأداب، جامعة الزقازيق ١٩٨٩م.

دوائر المعارف:-

٩٥. بطرس البستاني، دائرة المعارف، المجلد السابع، ط. بيروت ب.ت.

First Research

Political relations between the Ottomans and the Safavids Since the establishment of the Safavid state until the Galderan battle (907 920 AH / 1502-1514 m)

Second Research

Trade impact of the Crusader settlement in the Levant

Nayef Al- Suhail
Basic Education College-Kuwait

November 2009

Historical Annual

Editor –in- Chief

Prof.Dr. Wageh Abdel Sadek Atek

Deputy Editor in Chief

Prof. Dr. Mahmoud Arafa

Managing Editor

Prof. Dr. Ismael Zin El Deen

Board of Editors

Prof.Dr. Mohamed Hamza Ismael

Prof.Dr. M. Fahmy Abd El Baky

Prof.Dr.Hamed Zian Ganem

Prof.Dr. Ahmed Zakrea Alschelek

Board of Consultants

Prof.Dr.Hasanein Rabieh

Prof.Dr. Zebeida Atta

Prof.Dr. Gamal Hagar

Prof.Dr.Mohamed Afifi